الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ

جامعة 20 اوت 1955 سكيكدة

كلّية الآداب واللّغات

القسم: اللّغة والأدب العربيّ

المستوى: السّنة الأولى ماستر (ل.م.د)

التّخصّص: أدب عربي قديم

محاضرات في مادة النّثر العربيّ القديم

مطبوعة بيداغوجيّة للتّرقية إلى أستاذ التعليم العالي

إعداد الدكتور: عبد الرّزّاق بوقطوش

السّنة الجامعية: 2024-2025

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة 20 اوت 1955 سكيكدة

كلية الآداب واللغات

القسم: اللغة والأدب العربي

المستوى: السنة الأولى ماستر (ل م د)

التخصص: أدب عربي قديم

محاضرات في مادة النثر العربي القديم

مطبوعة بيداغوجية للترقية إلى أستاذ التعليم العالي

إعداد الدكتور: عبد الرزاق بوقطوش

2025-2024

محاضرات في النثر العربي القديم

لطلبة السنة أولى ماستر أدب قديم

المقياس سنوي بسداسيين: أربعة عشر محورا بين المحاضرات والتطبيقات.

اسم المادة: النثر العربي القديم

الرصيد في الماستر: 04

معامل المقياس: 02

الأستاذ: د.عبد الرزاق بوقطوش

الأهداف العامة من المقياس:

1)إكساب الطالب معرفة أساس حول طبيعة النثر العربي القديم، أشكالا وخصائص وتصورات ومضامين...

2)إكساب الطالب معرفة مؤسسة حول الكتّاب العرب الكبار وخطبائهم في مختلف العصور والأقاليم...

3)تعرف الطالب على أهمّ الفنون النثرية لدى العرب قديما، واطلاعه على أجود نصوصهم وأهم معانيها ومدلولاتها..

المكتسبات القبلية المطلوبة:

سبق للطالب دراسة الفنون النثرية العربية القديمة في مرحلة التدرج (الليسانس)، ولكنها كانت معارف سطحية لم تتسع لها المساحة الزمنية الكافية لتحصيلها، أو تحصيل أهمها على الأقل...

محتوى المادة:

1) مفهوم النثر عند العرب القدامى:

-موقف الجاحظ من النثر.....(نص في الموضوع)

-موقف أبي حيان التوحيدي من النثر.....(نص في الموضوع)

2) الخطابة:

-الخطابة السياسية.....(نماذج منها)

-الخطابة الدينية.....(نماذج منها)

3) الرسائل:

-الديوانية.....(نماذج)

-الإخوانية.....(نماذج)

-الأدبية.....(نماذج)

4) السّرد العربي القديم:

-المقامة:.....(نموذج من مقامات بديع الزمان الهمذاني وآخر من مقامات الحريري)

-أدب الرحلة/-الرحلة الدينية (الحجازية).....(نموذج للدراسة)

-الرحلة الخيالية.....(رسالة الغفران للمعري)

-القصة على لسان الحيوان:.....(نماذج من كليلة ودمنة لابن المقفع)

-القصة الفلسفية.....قصة حي بن يقظان لابن الطفيل)

العمل الشّخصي للطالب: -إعداد بطاقة قراءة حول المقررات قبل كل حصة إجباري.

-تلخيص بعض فصول الكتب-تقديم تقرير حول ملتقى حضره أو يوم دراسي...

المقدمة

النثر العربي القديم مادة معرفية مغرية بالدرس وبالمطالعة بالنظر إلى قيمة المصادر العربية الضخمة التي تصب معظمها، إن لم نقل كلها، في صميم اهتمام هذا المقياس تحديدا...

الاطلاع على تلك المصادر الضخمة في تراثنا العربي، والاعتكاف على بحثها ومدارستها وحده يصنع باحثا جادا ناجحا تتوافر فيه أهم ميزات البحث العلمي الرصين...

إن مجرد قراءة تلك المصادر قراءة متأنية في مرحلة أولى ثم قراءتها، أو قراءة بعضها على الأقل، في مرحلة ثانية قراءة فاحصة مدققة تجعل من الطالب في أي مرحلة من مراحل تحصيله العلمي، تجعل منه متسلحا بأهم قواعد الأدب العلمية والمعرفية واللغوية والأسلوبية والمعجمية وحتى الفكرية والفلسفية...

لا شك إذن بعد كل ذلك من الاعتراف بقيمة هذه المصادر وقيمة ما فيها من ذخائر معرفية وجب أن نوليها العناية الكافية والاهتمام الأكبر تدريسا ودرسا ومطالعة وقراءة وبحثا ومن ثمّ توجيه الرسائل الجامعية نحوها قصد الرفع من قيمتها علميا ومن ثمة بناء الباحثين المعول عليهم في التأسيس لنوعية جيدة في البحوث والدراسات وحتى التأليف والتصنيف فيما بعد...

في هذه المرحلة علينا إعداد الطالب ليحسن قراءة كتب الجاحظ (ت255هـ) وأبي حيان التوحيدي (ت414هـ) وابن قتيبة (ت276هـ) وابن المقفع (ت142هـ) والمبرد (285هـ) وابن عبد ربه (ت328هـ) والمقري التلمساني (ت1041هـ) والزمخشري (ت538هـ) وابن كثير (ت774هـ) وابن الأثير (ت630هـ) ومجمع الأمثال للميداني (ت518هـ) والمسعودي (ت346هـ) وابن خلدون (ت808هـ) والسيوطي (ت911هـ) وحتى كتب السير والتراجم ككتب ابن الجوزي (ت597هـ) وابن القيم (ت751هـ) وابن تيمية (ت728هـ) والذهبي (ت748هـ) وغيرها...

المكتبة العربية التراثية ضخمة جدا وثرية جدا وواسعة جدا ومفيدة جدا والقراءة فيها ماتعة جدا وشيّقة جدا وملهمة جدا ومحفزة جدا...

نستهدف بالمقياس إثارة الطلبة نحو هذه الكنوز المعرفية فنربي لديهم ملكة القراءة والانكباب على المطالعة كرأس مال عالي القيمة في المقياس، نلفت انتباههم إلى عمق ما يقرأون، ونلفت انتباههم إلى علو كعبهم أثناء التعاطي مع هذه الكنوز المعرفية بحيث يحصلون التفوق الكبير مقارنة بأقرانهم في تخصصات أخرى، قد لا تتاح لهم الفرصة في الاطلاع عليها أو تدارسها أو البحث فيه...

فلو تأملنا محاور المقياس من مثل تعريفات الجاحظ(ت255هـ) وأبي حيان التوحيدي(ت414هـ) لمفهوم النثر وموقفهما منه يستدعي قراءة البيان والتبيين أو الحيوان أو البخلاء مثلا أو باقي رسائل الجاحظ ثم يستدعي قراءة الإمتاع والمؤانسة أو البصائر والذخائر مثلا وقد يستدعي قراءة أخلاق الوزيرين أو الصداقة والصديق أو الهوامل والشوامل للتوحيدي...

ولو تأملنا محور الخطابة بفروعها الدينية والسياسية وخطابة المحافل لاستدعى منا قراءة كتب أبي العباس شهاب الدين أحمد القلقشندي(ت821هـ) كموسوعته الشهيرة "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" مثلا، وفي ذلك متعة أدبية لا تنتهي...

ثم لو تأملنا محاور الرسائل بفروعها الديوانية والإخوانية والأدبية لاستدعى منا الأمر قراءة صبح الأعشى قديما وكتب شوقي ضيف حديثا مع كتب أحمد أمين مثلا مما تفتح لك مكتبة بحثها (هذه الكتب الحديثة) النوافذ لقراءة كتب تراثية عديدة...وأما مع محاور المقامة ثم أدب الرحلة والقصة على لسان الحيوان كما عند ابن المقفع(ت142هـ) مثلا وختامها بالقصة الفلسفية كما عند ابن الطفيل الأندلسي(ت581هـ) فأنت في عوالم فلكية من المتعة التي يتمنى صاحبها ألا يفارقها لعظم المتع النفسية والعلمية والأدبية والفكرية التي يجدها...

نشير في ختام هذه المقدمة إلى قضية مهمة جدا تتعلق بالمساحة الزمنية المرصودة للمقياس وهي سنة جامعية، نشير إلى أنها غير كافية بالنظر إلى الأهمية القصوى للمقياس في تعلقه بالتخصص القاعدي وندعو إلى مرافقته الطالب طيلة مسار التكوين في الماستر وذلك بجعله لثلاثة سداسيات حتى نبلغ به غاياته الأكاديمية التي وضعت له...

المحاضرة الأولى

مفاهيم تأسيسية

مفهوم النثر العربي عند العرب القدامى

إن من يتصفح أهم كتب النقد والبلاغة العربية يفاجأ بظاهرة غريبة وهي قلة عناية النقاد القدامى بالنثر، في حين أنهم أمعنوا في بحث الشعر من جميع نواحيه تفصيلا وتدقيقا على حد الإفراط أحيانا، فقد تحدثوا عن النثر لاباعتباره فنا قائما بذاته بل تحدثوا عنه كجزء من البلاغة أو البيان حديثا يتسم بالإبهام خاليا من التخصيص أو التحديد

ولعل من مظاهر هذا الإهمال أننا لا نجد تعريفا صحيحا للنثر قد استوفى ما يشترط في كل تعريف صالح من دقة وإحاطة واستقصاء ، في حين أن الشعر قد حظي بتعريفات لا بأس بها تتسم بالضبط والإحكام، أما النثر فما ورد في حقه من تعريفات لا تتعدى التقسيم والتصنيف، فهو باعتبار الشكل ينقسم إلى خطب ورسائل، وباعتبار اللفظ يتفرع إلى نثر مرسل ومزدوج وسجع.

من أقوال الكتّاب القدامى حول النثر:

يقول ابن وهب: "واعلم أن الشعر أبلغ البلاغة..."(1)

ويقول الكاتب المفكر مسكويه: فكذلك النظم والنثر يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما، ثم ينفصل النظم عن النثر بفضل الوزن الذي به صار المنظوم منظوما. ولما كان الوزن حلية زائدة وصور فاضلة على النثر صار الشعر أفضل من النثر من جهة الوزن. فإن اعتبرت المعاني كانت المعاني مشتركة بين النظم والنثر. وليس من هذه الجهة تميز أحدهما من الآخر..."(2)

هذه النظرة الجزئية للنثر كما رأيناها في الأقوال السابقة تؤكد موقف النقاد القدامى السلبي من النثر فهي نظرة جزئية انصرفت على الشكل دون اللُب، إلى الصورة دون الحقيقة والمعنى وهي التي حالت دون التبلور التام لمفهوم النثر الفني عند القدامى.

حتى أن الكتّاب العرب من مفكرين وفلاسفة وقصّاصين ونقاد كانوا يمارسون النثر الفني دون وعي واضح دقيق لمزيّة الفن المتوفرة في كتاباتهم ودون أن يُعترف بفضلهم.

الجاحظ وموقفه من النثر:

• يقول الجاحظ :(وقد نُقلت كتب الهند،وتُرجمت حكم اليونانية، وحُولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنا، وبعضها ما انتقص شيئا، ولو حُوّلت حكمة العرب لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وحكمهم،ولبطل ذلك المعجز، وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان حتى انتهت إلينا، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها، فقد صح أن الكتب (أي كتب النثر) أبلغ في تقييد المآثر من الشعر.) (3)

أبو حيان وموقفه من النثر:

• يقول أبو حيان : " وأحسن الكلام ما رق لفظه ولطف معناه... وقامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم"

ويقول أيضا: " إذا نظر في النظم والنثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما .. كان أن المنظوم فيه نثر من وجه، والمنثور فيه نظم من وجه، ولولا أنهما يستهمان هذا النعت لما ائتلفا ولا اختلفا"

يُعد أبو حيان أول من اهتدى إلى حقيقة النثر الفني وحلل مقوماته الجوهرية تحليلا يتصف ، على إيجازه، بالدقة والعمق.

كذلك بيّن أهمية كل من عنصري العقل والموسيقى في النثر الفني، ومن رأي التوحيدي أن الشعر لا يختص وحده بالموسيقى والخيال، بل هما قدر مشترك بين الشعر والنثر الفني ، والفرق بين النوعين من الكلام نسبي أما الجوهر فواحد.(4)

النثر الجاهلي:

مصطلح النثر أو "النثر الفني" العربي:

النثر أحد قسمي القول، فالكلام الأدبي كله إما أن يصاغ في قالب الشعر المنظوم وأما في قالب القول المنثور.

يقول ابن رشيق القيرواني: "وكلام العرب نوعان: منظوم ومنثور، ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديئة فاذا اتفق الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، لم يكن لإحداهما فضل على الأخرى، وان كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية ويشرح ابن رشيق أن أصل التسمية في المنظوم وهي من نظم الدر في العقد وغيره، أما للزينة أو حفظا له من التشتت والضياع، أما إذا كان الدر منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به.(5)

من هنا حصلت عملية تشبيه الكلام الأدبي بالدر والمجوهرات وتوهم الناس أن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة. وذلك بالنظر إلى سهولة حفظ الكلام المنظوم واستظهاره بسبب الوزن، وانعدام الوزن في الكلام المنثور يجعه عرضة للنسيان والضياع، وذلك في وقت كان الناس فيه يتداولون النصوص الأدبية مشافهة دون الكتابة في هذا العصر الجاهلي والإسلامي الأول وقد زال هذا التفاضل في عصور التدوين وكتابة النصوص كما في زماننا الحاضر، بحيث اختص كل من النثر والشعر بمجالات في القول تجعله أليق به.

ويتقد ابن رشيق محقا: إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، وهو يقصد بذلك تلك الحقبة الزمنية قبل الإسلام وبدايات العهد الإسلامي تخصيصا.

وجاء هذا ردا كافيا على الذين ينفون وجود نثر فني عربي جيد قبل الإسلام، وإنما كان ضياع ذلك النثر الجاهلي أو اختلاطه بسبب طبيعته الفنية الخالية من الوزن، وهو لم يعن بذلك إلا النثر الفني أي الأدبي الذي يتوفر كما ذكر بروكلمان – "على قوة التأثير بالكلام المتخير

والحسن الصياغة والتأليف في أفكار الناس وعزائمهم". أما النثر الاعتيادي الذي يستعمل بين الأفراد في التداول اليومي الغرض الاتصـ ـال وقضـ ـاء الحاجات والثرثرة مما ليس فيه متانة السبك والتجويد البلاغي ولا قوة التأثير فلا يعتد به، وليس له قيمة اعتبارية في الدراسة.

يعرف النثر على انه: تعبير عن المشـ ـاعر وما يدور في الذهن دون قيود فنية، كل ما يدور في نفس وقلب الإنسـ ـان من أفكار وخواطر ومشـ ـاعر وانفعالات ولا يتقيد بوزن أو قافية، ويدخل فيه الخيال للتعبير عنه. والنثر يكون لغة للتخاطب. وشـ كل وأسـ لوب للكتابة والتعبير. وشكل أدبي يستوعب التفاصيل والتجارب الإنسانية. والنثر يقوم على أساس بناء لغة على لغة.

أسباب قلة النثر الجاهلي:

إن ما روي من النثر الجاهلي قليل بالنسبة لما روي من الشعر وذلك للأسباب الآتية:

1- سهولة حفظ الشعر لما فيه من إيقاع موسيقي.
2- الاهتمام بنبوغ شاعر في القبيلة يدافع عنها ويفخر بها.
3- قلة أو انعدام التدوين، والاعتماد على الحفظ والرواية.

خصائص النثر الجاهلي:

1- **وضوح المعاني وأصالتها:** فهي مسـ ـتمدة من القيم الخلقية، والفضـ ـائل الاجتماعية التي تعرفها وترضـ ـيها المروءة العربية في هذا العصـ ـر، كما تصـ ـدر عن عاطفة صـ ـادقة عن عفو الخاطر دون تكلف أو مبالغة، كما تتميز هذ المعاني بالوضوح بعيدا عن الغموض.

2- **كثرة الأمثال والحكم:** فالمتتبع والقارئ للنثر الجاهلي بجميع أقسـ ـامه يجده مليئا بالحكم والأمثال التي تعبر عن تجارب الجاهليين في الحياة، لذلك جاءت وصـ ـاياهم وخطبهم بسيطة تعبر عن بسـ ـاطة الحياة. صـ ـفاء التعبير والابتعاد عن التكلف في الصـ ـياغة: حيث يتصف النثر الجاهلي بأنه قصير الجمل، وجزل الألفاظ، وجميل الصياغة، كما أن أسلوبه قد يكون مرسلا في الكثير من الأحيان، أو مسجوعا منسجما مع الفطرة البدوية التي لا تعرف التصنع والغرابة.

قلة التصوير الفني: لا يخلو النثر الجاهلي من الصور الفنية، والتشبيهات، والكنايات المختلفة ولكنها قليلة؛ وذلك لان الإنسان الجاهلي يميل إلى التقرير في عرض الأفكار، كما أنهذه التشبيهات مستندة من البيئة الحسية المحيطة بالعرب، كقولهم: (أن ترد الماء بماء اكيس) حيث يضرب هذا المثل في اخذ الحيطة والحذر.

الأمثال والحكم في الأدب العربي القديم:

الأمثال: هي العبارة الفنية السائرة الموجزة التي تصاغ لتصوير موقع أو موقف أو حادثة ،وللمثل مورد ومضرب.

أما المورد فهو القصة أو الحادثة التي أطلق فيها لأول مرّة.

أما المضرب فهو الحال الذي نستخدمه فيه لمشابهته لقصة المثل.

الحكمة: هي قول موجز موافق للحق، يصلح قانونا من قوانين الحياة وهو ثمرة ال حنُكَة ونتيجة الخبرة، وخلاصة التجربة.

نشأة الأمثال والحكم وتطورها:

من المعلوم لدى الجميع أن نشأة الأمثال العربية نشأت في العصر الجاهلي وتطورت ولا يمكن تحديدها بالسنة لأن المعلومات عنها وجدت مكتوبة كالخطابة، بما أن الكتابة ما كانت رائجة في ذلك العصر كيومنا هذا وعدم وجود التدوين،فتناقلها الأجيال شفاهية إلى أن ظهرت الكتابة ومن ثَّم سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة ،إذ ألف فيها " صحَار العَبْدي" في أيام معاوية بن أبي سفيان (42- 366) كتابًا ،كما ألف فيها " عبَيْد بن شَرِيَّةَ" معاصره كتابًا آخر.(6) ويقول صاحب الفهرست إنه رآه في نحو خمسين ورقة. وبعد ذلك في القرن الثاني الهجري كثر تأليف الأمثال بكثرة. وألف فيه كتاب (أمثال العرب) للمفضل الضبي. وازدهرت الكتابة والتأليف في القرن الثالث الهجري منه كتاب (فصل المقال في شرح

كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام) قام بشرحه أبو عبيد البكري. وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى حتى يؤلف (جمع الأمثال) لأبو هلال العسكري ويخلفه الميداني في كتابه (مَجْمَع الأمثال) وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابا.(7)

أما عن تاريخ الأمثال أن طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية، وخاصة ما رواه " عبيد ابن شَرِيَّة " إذ لم يحاولوا من جاءوا بعده ان يفردوا الأمثال الجاهلية والإسلامية. وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها في كثير من الأحيان. ومع ذلك يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يرونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها وهي تتخذ طريقين عندهم: فالطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره. مثل "جزاء سنمَار". وأما الطريق الثاني فهو أن ينسبوا المثل إلى الجاهليين. فحينئذ يتعين زمنه وتاريخ ه. وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة، ومن يغْرق في القدَم مثل: " لقمان عاد" من قبيلة يمنية التي كانت تنزل في الأحقاف والتي بَادَتْ ولم تبقى منها باقية في الجاهلية وقد ظل اسم "لقمان" يدور علي ألسنة شعرائهم. وجمع أمثاله "هِلَر" في كتاب سماه "أمثال لقمان (8)

وقد أشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، ويقول الجاحظ :"ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صَيْفِي (9)

وربيعة بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظَّرب العدواني ولبيدين ربيعة" ومن أمثال أكثم الصيفي نجد "رب عجلة تهب ريثا". "وأسوأ الآداب سرعة العقاب". "ربَّ كلام ليس فيه إكتتام". "إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة". "لا تطمع في كل ما تسمع".(10)

أما الحكمة فقد استمدها الفرد العربي الجاهلي من الحياة اليومية ومن التفكير الفطري، لأن حياتهم تمتاز برجاحة العقل وعمق النظر. وطبعت الحياة القبلية بطابعها على الحكمة الجاهلية. فنجد العشيرة تشترك في الجزيرة والواجب على العربي الوقوف بالصلابة بجانب أخيه العربي، والدعوة إلى الشجاعة وحفظ العرض والجود والتمسك بأهداف الصدق.ولا شك أن العصر

الجاهلي كان أكثر العصور الأدبية إنتاجا للأمثال و الحكم ،ويتجلى ذلك واضحا بالرجوع إلى كتب الأمثال و الحكم الكثيرة ،خاصة المؤلفة في العصر العباسي.

كما أشتهر هذا العصر بأسماء لأعلام ضرب بهم المثل كل حسبما عرف به ،وكمثال على ذلك: (أبلغ من قس).(أحكم من لقمان).(أوفى من السموأل) .(أجود من حاتم) .(أعدى من الشنفرى). (رجع بخفي حنين).(أطمع من أشعب).(مواعيد عرقوب).وفي صدر الإسلام أتى القرآن الكريم هدى ورحمة للعالمين ،فكان جامعًا كل المبادئ والقيم السامية وفتح الإسلام الحنيف الآفاق لنمو الحكمة الجاهلية الداعية إلى المودة والتآلف والكرم والشجاعة. والقرآن يشيد بالحكمة فقوله تعالى"ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله. فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد" (سورة لقمان الآية 12.)

وكذلك في قوله(يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب)سورة البقرة:الآية 167

ولقد جاء في أمثال القرآن الكريم واضحة أغلبها فيها المشبه صراحة إلى جانب المشبه به ،قال تعالى:(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)سورة إبراهيم:الآية14.وقوله أيضا:(مثل الذي اتخذوا من الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن اوهن البيوت لبيت العنكبوت ولو كانوا يعلمون)سورة العنكبوت:الآية42

والرسول -صلى الله عليه وسلم- يدعو إلى تعلم الحكمة من أفواه الناس لأنها ثمرة التجربة الإنسانية المتجددة المتغيرة فقال: "الحكمة ضالة المؤمن"(11)

إن من الشعر حكمة ،وإن من البيان سحرا"،ومن حكمه وأمثاله: "المؤمن مرآة المؤمن"،لأخير في صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى"،"ليلدغ المؤمن من جحر مرتين"،"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"،"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"

ومن المصادر الأخرى للمثل والحكمة في صدر الإسلام،ما جاء على لسان الخلفاء والصحابة والعلماء والصالحين ومنها:

أبو بكر الصديق-رض ي الله عنه-إن البلاء موكل بالمنطق،و قول عمر بن الخطاب- رض ي الله عنه-"

خذو الحكمة من أفواه المجانين" ،وكذلك الإمام علي- رضي الله عنه- الذي كان يتمتع بالحكمة ومن حكمه نجد: "القناعة مال لا ينفذ". "العفاف زينة الفقر والشكر زينة الغنى". " الصبر صبران. صبر على ما تكره وصبر على ما تحبه". "كل وعاء يضي ق بما جعِل فيه إلّا وعاء العلم فإنه يتسع". "لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل ولا ميراث كالأدب ولا ظهير كالمشاورة".

ويظل المفهوم الإسلامي للحكمة سائدًا في العصر الأموي الذي حاول العرب فيه الاحتفاظ بعروبتهم والابقاء على تراثهم الحضاري. فالحكمة عندهم تظل مرتبطة بالعلم لكنها أخذت تتطلع إلى الفلسفة اليونانية بتحفظ. فالحكمة في العصر الأموي وثيقة الصلة بالعلم. ولكن دائرة العلم تتسع هنا نظرًا لاتجاه الأمويين إلى الترجمة عن اليونانية فتتسع تبعًا لدائرة الحكمة.غير أنه لم يبتعد كثيرا عن الأمثال الجاهلية والإسلامية بصبغة دينية،ولعله كان لحكماء هذا العصر دور إيجاد حكم وأمثال مثل معاوية بن أبي سفيان ،وعمر بن عبد العزيز ،وإبراهيم بن يزيد النخعي والحسن البصري(12)

ومن أمثال وحكم عمر عبد العزيز :(آفة الرئاسة الفخر).(لاينفع القلب إلا ما خرج من القلب).(من عد كلامه من عمله قل كلامه).(أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم).(أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم).

كما نجد الحسن البصري في حكمته الوعظية: (من عرف ربه أحبه،ومن عرف الدنيا زهد

فيها).(عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك).(إن النفس أمارة بالسوء فاعصها في الطاعة ،فاعصها أنت بالمعصية).

وأيضا نجد معاوية بن أبي سفيان له أمثال وحكم مثل:(الغريب لمن لا أدب له).

وفي العصر العباس ي ازدهرت حركة النقل والترجمة عن الثقافات الهندية والفارسية واليونانية، وقد نشط العرب نشاطًا ظاهرًا بعد احتكاكهم بغيرهم من الأمم ذات الحضارات الراسخة في نقل تراث الحضارات القديمة للاستفادة منها.

وقد شهد العصر العباس ي انتشارا للمعارف والعلوم والتأليف وانعكست على الحياة الأدبية وفنون النثر خاصة،فكان للمدينة والحياة الجديدة أثر بالغ في الحكمة المبنية على الخبرة والمعرفة،ولقد اصطبغت بصبغة المدينة الجديدة،وانطلقت قوية المبنى في قسم كبير منها،وقد كانت ثمرة الخبرة والمعرفة،ثمرة العقل الاختياري،والعقل التفكيري،ولهذا كانت الحكمة العباسية شديدة التأثير و شديدة الانطلاق و الانتشار ولهذا كان لها قيمة إنسانية حقة،وكانت الكنز الذي اغترف منه الناس على ممر العصور (13)

وغدا إنتاج الأمثال والحكم في العصر العباسي أمرا ميسورا عند العرب والفرس والمولدين،وجمعها وتدوينها متاحا لمن اجتهد فيها،وقد ألفوا فيها الكتب،ومن أشهرها "مجمع الأمثال" للميداني في نحو خمسين كتابا مرتب على حروف المعجم ،بعد أضاف إليه أمثال المولدين،و"المستقصى في الأمثال" للزمخشري.

ومن أمثال هذا العصر:(عند الامتحان يكرم المرء أو يهان).(ما أقبح الخضوع عند الحاجة،والتكبر عند الاستغناء).(معالجة الموجود خير من انتظار المفقود).(من عيِّر عير).(الخنفساء في عين أمها راشية).(الجنون فنون).(عذره أشد من ذنبه).(14)

الأمثال والحكم في العصر الأندلسي:

لقد تأثرت الأمثال والحكمة في العصر الأندلسي بما كان يجلو في الأدب العباسي "فقد كان

صدى لحكمة بني العباس كما كان الأمر في أدب الأندلسي،وذلك أن عهد الانحطاط في الأدب في عهد انهيار فكري وفني،فكان الأديب فيه شديد التلفت إلى من سبقه شديد التقليد والزخرفة اللفظية والبديعية،شديد التلهي بالقشور والظواهر الفنية،وكذلك كان الأديب الأندلس ي صادقا في التعمق في التحليل،والانفلات في أجواء الفكر،صادقا عن التغلغل في الأغوار،يهمه أن يقلد الأديب العباسي ،وإن يلوك أفكاره،ويردد بعض حكمه من غير ما ابتكار ولا تجديد" (15) ويرجع هذا الترابط الوثيق بين الأدبين العباسي والأندلسي خاصة الأمثال والحكم إلى طبيعة المرحلة التاريخية من جهة، وإلى كتب الأمثال والحكم العباسية التي دخلت الأندلس من جهة أخرى، وغدت مرجعا في مجال اختصاصها ،وهي الكتب التي رصدها ابن خير الاشبيلي في فهرسته والتي تداولت في الأندلس وتم دراستها والاستناد عليها ،ومنها :كتاب "أمثال لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري"،وكتاب "الأمثال لعبد الملك بن قريب الأصمعي" ،وكتاب" الأزهر لابن الأنباري"،وكتاب" أفعل من كذا لأبي علي البغدادي"،وكتاب "المجلة في الأمثال عن أبي عبيدة معمر بن المثنى"،وكتاب "الأمثال للمفضل الضبي""(16)

ومن الأمثال والحكم الأندلسية :(لو طلب لبن الطير في اشبيلية وجد)،(من غاب خاب وأكل نصيبه الأصحاب)...

ومن أشهر البلغاء والأدباء في الأندلس ابن عاصم الأندلسي الغرناطي ،ومن أمثاله وحكمه نجد:(زيادة الظلم خراب).(الخير عادة والصبر عبادة).(جازي الكريم بفعله وأترك اللئيم ولا تنظر إلى عمله).(ثوب خشن يسترك خير من ثوب حرير يفضحك).(حصل زادك ليوم معادك تبلغ مرادك).(زدناه قربا زادنا هربا)ز(إن لم ينفعك الباز أنتف ريشه).(زيادة الشيء نقصان).

الفرق بين المثل والحكمة:

-1 أن الحكمة عامة في الأقوال والأفعال، والمثل خاص بالأقوال.

2-أن الحكمة قد يقع فيها التشبيه وقد لا يقع والمثل وقع فيه التشبيه.

3-أن المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ. ولا يبعد أن يقال بعد ذلك أن المثل هو من الحكمة فهي تعمه وتعم غيره. ومن هنا قرر الإمام أبو هلال العسكري صاحب كتاب (جمهرة الأمثال) "أن كل حكمة سائرة تسمى مثلًا".

4-أن المثل ينطلق من حاجة نفسية عميقة وهو أكثر شعبية من الحكمة وأعم وأشمل منها.

5-المثل يتسم بالعمومية ،أي يكون نتاج عامة الناس،بينما الحكمة في الغالب هي نتاج خاصة الناس،أي حكماء الناس وعقلائهم.

6-المثل يأخذ طابع المشافهة عادة،بينما الحكمة أغلبها مدون في الشعروالخطب ونحوها.

7-للمثل مورد ومضرب ،وأما الحكمة فهي خلاصة لتجربة إنسانية.

النثر العربي القديم (مظاهر العصور الأدبية):

إن النثر في اللغة هو الشئ المبعثر (المتفرق) (17) وأيضًا التشتت. فنقول تناثرت الأوراق أي تشتت وتفرقت في كل اتجاه.

أما في الاصطلاح هو الكلام الذي ليس فيه الوزن،ويعتمد على الحقائق،أي هو الكلام المقفى بالأسجاع، وهو الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء. وهو أنواع منه ما يكون قصصًا وما يكون خطابة وما يكون مثلا وحكمة وإما يكون رسائل أدبية محبرة(18)

نشأة النثر العربي القديم:

أ-العصر الجاهلي: لقد تميز النثر في العصر القديم بقلته، وذلك بتناقل الناس بالطريقة

الشفاهية مما أدى إلى ضياعه وعدم وصوله إلينا كاملًا. وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهلين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ،وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة فقد عرفوها، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية (19) وكذلك وجدت صحيفة لقمان بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على إنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثرًا وشعرًا. وفقدان الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وجدت عندهم ألوانا مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان (20) فالخطابة استخدمت في الدفاع عن القوم أو التحريض عن القتال و نصرة الضعيف والافتخار بالقبيلة. كما استخدموها في مناظراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب وفك المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى حيث كانت تقام الخطب فيالأسواق التجارية مثل خطبة قس بن ساعدة في سوق عكاظ(21) الذي حظر فيها النبي صلى الله عليه وسلم.

ويرى الجاحظ أن خطبة قريش في الجاهلية يعني بها خطبة النساء.(22)

أما الأمثال والحكم فكان له الحظ الوافر وهو تراث الأمم والشعوب، فالعربي يميل إلى تزيين كلامه وتقويته بضرب الأمثال فصاروا يدونوها العرب في أواسط القرن الأول الهجري لكن فقِد الكثير من الأمثال وهذا راجع إلى سبب تأخر التدوين وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر(23). ووجدتْ أمثال وحكم مجهولة قائلها غالبًا تنبعث من أناس مجهولين من عامة القبائل.

والقصص فقد تناولت وقائع و أحداث الأمم السابقة مثل أخبار العرب البائدة ورام ذات العماد وعام الفيل ورواها ال قصاص في أوقات سهرهم في الليل وحول مضارب حياتهم وفي مجالس أهل القرى والحضر. وقد دخل عليها التحريف والتبديل بسبب عدم وجود التدوين

والكتابة، كما تناولوا مغامراتهم ورحلاتهم وبطولاتهم وانتصاراتهم في الحروب وكانوا يقصون كثيرًا عن ملوكهم من النادرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم ،وأيضا على أبطالهم وملوك الأمم من حولهم وشجعانهم وكهانهم وشعرائهم وسادتهم. وقصص الهوى والعشق مثل ما نجده في قصة "عنترة وعبلة "و "المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف(24).

أيضا نجد سجع الكهان الذي هو أسلوب مسجع حافل بالأقسام والإبهام. والكهان عند العرب القدامى هم طائفة أدعت معرفة الغيبيات والمستقبل بما سخرلهم من الجن الذين يسترقون السمع من السماء، وهذا الضرب انتهى مع مجيء النبي صلى الله عليه وسلم وكان كثيرًا ما ينذرون بوقوع حروب وغزوةٍ غير منتظرة. كما كان كثيرًا ما يفسرون رواهم وأحلامهم.

وكان أكثر كهان العرب حسب رأي الجاحظ هو سَلِمَة بن أبي حية. وفي النساء أشهرهن الشّعثاء. وكاهنة ذي الخلصَة، والكاهنة السعدية، والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية وزبراء. فكانوا يقسمون ويؤمنون بالكواكب والنجوم والسحب والرياح والليل الدجي والصبح المنير والبحار وكثير من الطير في اعتقادهم هذه الأشياء تحكمها قوة وأرواحًا حقيقية ،مثل قول زبراء كاهنة بني رئام و يروى أنها أنذرتهم بغارة عليهم فقالت: واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق. إن شجر الوادي ليأدو خِتلا ويحرقا أنيابًا عطلا وإن صخر الطّود لينذر شكلا لا تجدون عنه معلا" .(25)

والرسالة أو الترسل في هذا العصر قد أخذت عدة أشكال بسبب عدم وجود التدوين والكتابة فكان الترسل إشاريًا وشكل آخر كان لغويًا إما شفويًا أو شعريًا. فكثرت الرسالة الشعرية وهذا ما وصل إلينا كان أوسع وأغزر لأن العصر الجاهلي كان الغالب فيه على العرب أنه عصر مشافهة وبداوة لذلك كانت رسائلهم شفوية لكن ليس بمثل الكم الهائل بالنسبة للرسائل الشعرية وذلك لسهولة تنقله وسيرورته فتقريبا كل المعلقات هي عبارة عن رسائل مثل معلقة النابغة الذبياني في اعتذاراته.

ب-العصر الإسلامي: لقد تطور النثر في هذا العصر بسبب نزول القرآن الكريم وظهور الحديث النبوي الشريف، فالقرآن تميز ببلاغة ألفاظه ووضوح معانيه وجاء بمواضيع لم تكن مطروقة إليها من قبل العرب في شعرهم أو نثرهم. "فدخل النثر العربي في طور جديد بظهور الإسلام بعد أن تعرضت الحياة الأدبية لانقلاب شامل وتطور بعيد المدى ولم يكن ثمة بدمن أن يتأثر الأدب بالحياة الجديدة وأن يكون صدى لأحداثها واتجاهاتها وكانت مظاهر التطور في النثر أوضح منها في الشعر. لأن الشعر فن تقليدي يترسم فيه الشاعر خطا سابقيه. ويلتزم بأصول محددة، ولذلك يكون أبطأ من النثر استجابة لدَواعي التطور (26)

أما أغراض النثر ومعانيه فإنها بلا شك تغيرت تغيرًا محسوسًا بظهور الإسلام. و"تلون النثر في هذا العصر بجميع ألوان الحياة الجديدة. فكان خطابة وكتابة ورسائل وعهودا وقصصًا ومناظرات وتوقيعات. وكان على كل حال أدبًا مطبوعًا، وامتاز النثر في هذا العهد بالإيجاز على سنة الطبيعة العربية الأصلية".(27)

أما الحديث النبوي الشريف تميز ببلاغة ألفاظه وروعة تعبيره وبعده عن التكلف والتصنع وقوة الإقناع والتأثير،وكان له الأثر الواسع في ظهور مجموعة من الفنون النثرية من خطب دينية وأمثال ضربها النبي صلى الله عليه وسلم ومجموعة من الوصايا والحكم مثل وصايا النبي صلى الله عليه وسلم. وما وجدنا من وصايا لقمان في الذكر الحكيم فتطورت الخطبة في هذا العصر بتطور موضوعاتها حيث تناولت الدعوة إلى الدين الجديد (الإسلام) بعد أن كانت سابقًا في الدعوة إلى العصبية القبلية. كما دعت الخطبة إلى التوحد والإيخاء والتعرف على أمور الدين والدنيا من معاملات وعبادات واستخدمت الرسائل في العصر الإسلامي وذلك رغبة النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة ملوك العالم إلى الدين الإسلامي، فتميزت بالوضوح التام والإيجاز والبعد عن التكلف من اجل تحقيق الهدف، وتلت مجموعة من الرسائل من الخلفاء الراشدين إلى قادة الإمارات والامم.

وظهرت القصة القرآنية فأصبح هذا اللون موجودًا في الذكر الحكيم أي سرد قصص الأنبياء مصداقًا لقوله تعالى:" نحن نقص عليك أحسن القصص"(سورة يوسف الآية 3) ،وأيضًا سرد ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم. والصحابة -رضوان الله عليهم- وهذا ما نجده في سرد سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسير الخلفاء الراشدين.

دعا الرسول عليه السلام إلى الكتابة وتعلم الكتابة ونشر ما بين أصحابه وخاصة لما كثر اللحن والخطأ في تدوين الوحي والحديث النبوي الشريف، حيث أصبحت الكتابة تستعمل في الأمور الدنيوية من معاملات بين الناس مثل كتابة الدين في قوله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه و ليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق."(سورة البقرة الآية 282).

وكذلك كانت الكتابة تستعمل في العقود والعهود وهذا ما نجده في المعاهدة التي كتبها الرسول عليه السلام بينه وبين قريش عام الحديبية والتي نصت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ذمة لا تنكت "وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه"(28)

ج-**العصر الأموي:** ازدهر النثر في هذا العصر ازدهارًا واسعًا. وبداية التحزب بعد مقتل عثمان بن عفان -رض ي الله عنه- ويرجع سبب ازدهار النثر هو ظهور الكتابة مع عبد الحميد الكاتب (747م/ 231هـ) في القرن الثاني الهجري وظهور التدوين: إن الكتابة نمت في العصر الأموي نموًا واسعًا. فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات. وقد ألفوا كتبًا كثيرة".(29)

ولعل من أهم الأسباب التي هيأت لرقى الكتابة الفنية في هذا العصر تعريب الدواوين في البلاد المختلفة وتعقد الحياة السياسية وكثرة الأحزاب والمذاهب".(30).

فأصبحت الخطابة متطورة ومتنوعة بعدما كانت في الإسلام الخطبة الدينية مهيمنة وفي العصر الجاهلي العصبية قوامها. فأصبحت متعددة بتعدد الأحزاب السياسية التي ظهرت في هذا العصر وكثرة الفتن والاضطرابات وتوسع الفتوحات الإسلامية. وقد تناولت موضوعاتها السياسية الوعظ والإرشاد والحروب والمسائل الاجتماعية فكانت متأثرة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

وجدت كذلك في هذا العصر التوقيعات التي هي عبارات موجزة غاية في البلاعة والعمق والروعة يكتبها أمير أو الوالي في أسفل الطلبات أو الحاجات أو القضايا والشكاوي التي ترفع إليه ويكون التوقيع في الأسفل يوجه به معاونيه إلى ما ينبغي فعله وتمتاز بالإيجاز والبلاغة والسمو بالمعنى وقوة الألفاظ ومن الممكن أن يكون التوقيع آية من القرآن أو مثلًا أو حكمة.(31)

فالرسائل كذلك كان لها نصيب وافر في هذا العصر حيث ازدهرت بكثرة نتيجة اتساع الدولة الإسلامية وحاجة الخلفاء إلى مراسلة ولا تهم، ونتيجة لامتزاج الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى الأجنبية وظهور ديوان الرسائل وانقسمت إلى عامة وخاصة ،كما شاعت إلى جانب الرسائل السياسية الرسائل الوعظية وخاصة مع الخليفة عمر بن عبد العزيز و الحسن البصري.

كما أوصوا الخلفاء والولاة أولادهم حول الحكم والخلافة مثلما يوص ي معاوية بن أبي سفيان إبنه يزيد. كما كانت موجهة الوصية إلى عامة الناس. إلا أن موضوعها تقريبا كان حول الأمور السياسية والحربية.

د-العصر العباسي: لقد خطا النثر في العصر العباس ي خطوة واسعة فهو لم يتطور من حيث موضوعاته وأغراضه فقط بل إن معانيه قد اتسعت وأفكاره قد عمقت وذلك لاستقرار الأمور في الدولة والنضج العقلي وتشجيع الخلفاء والأمراء للكتّاب وإغداق الأموال عليهم وظهور الترجمة والنقل وامتزاج الثقافات بسبب الفتوحات الإسلامية. حيث أصبح النثر متعدد الفروع فهناك

النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي والنثر الأدبي الخالص. وكان في بعض صوره امتدادا للقديم. وكان بعضها الآخر مبتكرًا لا عهد للعرب به (32).

فقد ضعفت الخطابة السياسية في أواسط العصر العباسي وانتشرت الخطابة المحفلية بعدما استقرت الأحزاب السياسية والتعصب الحزبي ظهرت الخطبة الوعظية". وضعفت الخطابة الدينية على لسان الخلفاء والولاة (33) فدخلت الخطابة في هذا العصر لتحاكي ما هو موجود في واقعها بعدما تمدن العرب وأصبحت له ثقافات وعادات وتقاليد دخيلة عليه من الوافد الأجنبي .فتنوعت بشكل كبير وتنوعت ميادينها.

نمت الرسائل بنوعيها (الديوانية والإخوانية) في هذا العصر نموًا واسعًا. ومن ينظر نظرة عامة في موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة وأخذ البيعة للخلفاء وولاة العهد. ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والآمان وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجذب وعهود الخلفاء لأبنائهم ووصاياهم الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم، وأيضًا فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التي كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر(34).وهي أقسام ومواضيع تخص الرسائل الإخوانية التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ومن تهنئة واستمناح ورثاء أو تعزية.(35)

فالقصص والسرد ظهر بسبب ظهور الترجمة فترجمت العديد من القصص والحكايات والكتب من اللغة الفارسية والهندية والرومية...إلى اللغة العربية بسبب اختلاط العرب مع باقي الأمم الأجنبية مما أدى إلى ظهور كتب مترجمة مثل كتاب ألف ليلة وليلة مجهول المؤلف. وكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع الذي ترجمه من الفارسية الهندية إلى العربية للفيلسوف الهندي بيْدَبَا.

فظهر فن المقامات أيضًا في هذا العصر والتي هي عبارة عن حكايات قصيرة تشمل كل واحدةٍ منها على حادثة وبطل تكون مسجوعة ومتصنعة الألفاظ ولها حكم ومواعظ.

خصائص النثر العربي القديم:

-استعمال المحسنات منها السجع وخاصة في المقامة والخطب والرسالة والتوقيعات وسجع الكهان.
-التدعيم بالنص القرآني والحديث النبوي الشريف.

-الإقناع الهادف والتأثير في القارئ والمستمع.

-الألفاظ متداولة. -سهولة العبارة وجزالتها.

الهوامش:

1-ابن وهب الكاتب،البرهان في وجوه البيان، تح:أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، طبع جامعة بغداد، ط1، 1967،ص350.

2-أبوحيان التوحيدي ومسكويه،الهوامل والشوامل، تح: أحمد أمين والسيد أحمد صقر،دار الهيئة العامة لقصور الثقافة وشركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، د.ط، 2001، ص 275.

3-أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،الحيوان، تح:عبد السلام هارون، شركة مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط2 ،1965، ، ج1، ص75.

4-أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة،تح:هيثم خليفة الطعيمي،المكتبة العصرية، صيدا،بيروت، لبنان،د.ط،2011، ج2،ص145- ص135.

5-ابن رشيق القيرواني،العمدة في صناعة الشعر ونقده،تح:النبوي عبد الواحد شعلان،مكتبة الخانجي القاهرة، مصر،ط1، 2000.

6-فؤاد عبد المنعم أحمد، الأمثال والحكم، دار الوطن للنشر، الرياض، السعودية ط1، 1420هـ/ 1999م، ص 21.

7-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي،دار المعارف، القاهرة، ط11، د.ت، ص404.

8- شوقي ضيف، العصر الجاهلي. ص404- 401.

9-الجاحظ، البيان والتبيين،تح: عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي، القاهرة،ط7، 1998،ج1،ص 361.

10- شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص 407.

11-محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة. كتاب الزهد، باب الحكمة، ج9/ 416 (2/1391 (https://www.islamweb.net/ar/library/content/5/4160/%D8%A8)

12-**أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري** الميداني .مجمع الأمثال، ج 1 ص12-13.

13-حنا الفاخوري,الحكم والأمثال.دار المعارف.مصر.ط.481980,ص63.

14-الثعالبي,التمثيل والمحاضرة.تحقيق :عبد الفتاح محمد الحلو,الدار العربية للكتاب ط2، 1981,ص44/41

15-حنا الفاخوري، الحكم والأمثال،.ص63-64

16-ابن خير الأشبيلي.فهرسة ابن خير الأشبيلي.تحقيق:محمد فؤاد منصور ,دار الكتب العلمية .بيروت.لبنان,ط1،1998،ص18

17- ابن منظور لسان العرب،دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط،د.ت، ج14 ص422.

18-شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. القاهرة ط3، د.ت ص19.

19-شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. القاهرة ط3، د.ت ص19.

20-شوقي ضيف. العصر الجاهلي 399.

21-شوقي ضيف. العصر الجاهلي، ص412.

22-الجاحظ البيان والتبيين، ج1، ص408.

23-شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص 404.

24-شوقي ضيف. العصر الجاهلي. ص.400.

25-شوقي ضيف- العصر الجاهلي، ص421.

26-عمر الدقاق. مواكب الأدب العربي عبر العصور. دار طلاس. دمشق ط1، 1988 ص77.

27-حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي. منشورات ذوي القربى. ط3، 1427 ص 322.

28-شوقي ضيف، العصر الأموي. ص131.

29-شوقي ضيف، الفن ومذاهبه،ص100.

30-عبد الحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه. مكتبة الأنجلوا المصرية، مصر، د.ط. د.ت. ص-122.

31-شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 489- 490.

32-شوقي ضيف، الفن وهذا ومذاهبه، في النثر العربي. ص121.

33-شوقي ضيف العصر العباسي الأول، ص 412.

34-شوقي ضيف، العصر العباسي الأول. ص468.

35-شوقي ضيف، العصر العباسي الأول. ص.491.

المحاضرة الثانية/ الخطابة في الأدب العربي القديم

الخطابة في اللغة هي مراجعة الكلام. وهي الكلام المنثور المسجع (1).أما في الاصطلاح هي فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته. فلا بد من مشافهة وإلا كانت كتابة أو شعرا مدونًا. ولا بد من جمهور يستمع وإلا كان الكلام حديثا أو وصية. ولا بد من الإقناع وذلك بأن يوضح الخطيب رأيه للسامعين ويؤيده بالبراهين. ليعتقدوه كما اعتقده ثم لا بد من الاستمالة والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه أو يهدئها ويفيض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف يشاء. سارًا أو محزنا. مضحكًا أو مبكيا داعيًا إلى الثورة أو السكينة .إذا فأسس الخطابة :المشافهة، الجمهور، إقناع ،استمالة.(2)

الخطابة في العصر الجاهلي:

لقد ازدهرت وشاعت الخطابة في العصر الجاهلي بإلزام من واقع ذلك العصر الفروس ي وطبيعة الصحراء، حيث كان الإنسان يكسب عيشه بالغزو والقتال. إضافة إلى ذلك كان العربي متعصبًا لقبيلته دون سائر القبائل مفتخراً بها وبنفسه فكان الخطيب الجاهلي هو الذي يولي جموع القبائل على أعدائها ويدعوا إلى الصلح ويمثل القبيلة في مجالس الاحتكام والشورى. كما أنه بالإضافة إلى ذلك يشير بالحرب أو ينهى عنها وهكذا فإن الخطابة في نشأتها الأولى خلال الجاهلية. كانت تصحب المقاتلين في غمار المعارك وتسهم في ملاحم البطولة إلى جانب السيف وتساعد في وضع أكاليل الغار على رؤوس الأبطال. كما تلحق الذل بالمنكسرين المخذولين (3)

ومن بين هاته الخطب نجد خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني يوم ذي قار إذ قال:" يا معشر بكر ذلك مغذور خير من ناج فرور إن الحذر لا ينجي من القدر وإن الصبر من

أسباب الظفر. المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره الطعن في ثغر النحور في الاعجاز والظهور يا آل بكر قاتلوا فما للمنية من بد"(4).

كما استخدمت الخطابة كذلك للنصح والإرشاد وإصلاح ذات البين وفي مناسباتهم الاجتماعية المختلفة والزواج أو الإصهار إلى الإشراف حيث كانوا يخطبون في المحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء وكذلك في الأسواق والندوات متحدثين عن مفاخر قبائلهم ومحامدها (5)حيث الأسواق عبارة عن أمكنة في شتى أنحاء الجزيرة العربية وكانت تقام عادة في الأشهر الحرم التي حضر فيها القتال ،أي أشهر السنة الأولى ذي القعدة، ذي الحجة ومحرم. حيث كان العرب يقصدونها لشؤون تجارية وأدبية فيعالجون فيها مفاديات الأسرى والخصومات وينصرفون إلى المفاخرة والمنافرة في خطبهم بالحسب والنسب والكرم ،وأشهر هاته الأسواق على الإطلاق سوق عكاظ(6) كما كانت في الجاهلية ندوات لكل كبيرة وصغيرة يجتمعون فيها للتشاور ويخطب فيها الخطب ومن أشهرها "دار الندوة "لرؤساء قريش حيث كانت لهاته الندوات والأسواق أثر فعال في شيوع الخطابة وازدهارها. (7) بالإضافة إلى ذلك فهناك سبب آخر يعلل ظاهرة ازدهارها في العصر هو واقع الأدب الجاهلي وطبيعته الشفهية لذلك سهل للجاهلي أن يلقي الخطابة شفاهية وبأيسر أسلوب.

لقد كان للخطيب منزلة رفيعة في هذا العصر حيث أصبح سيدًا في قومه يأمر فيطاع ...كما حفل هذا العصر بالكثير من الخطباء واشتهر منهم:

عتبة بن أبي ربيعة وقيس بن الشماس. سعد بن الربيع. أبو عمار الطائي وهاني بن قبيصة الشيباني وزهير بن جناب. وأشهر القبائل خطابة قبيلة تميم ومن خطبائها :ضمرة بن ضمرة وأكتم بن صيفي وعمرو ابن الأهتم المنقري وهاشم عبد مناف وأشهر الخطباء مأمون الحارثي. (8)

أما أشهر خطباء الجاهلية على الإطلاق قس بن ساعدة الإيادي وهو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحكمها. كان يؤمن بالله ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة. ويقال إنه أول من خطب على شرف واتكأ على سيف وقال في خطبه أما بعد. سمعه النبي - صلى الله عليه وسلم- في عكاظ فأثنى عليه ويروي أنه قال فيه" رحم الله قسًا إني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده". عاش يعبد الله ويعظ الناس حتى توفي سنة666م وقد عمر طويلا.(9)

قال في خطبته في سوق عكاظ:" أيها الناس اسمعوا وعوا. إنه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آ ت آت. ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر، وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وأنهار مجراة. إن في السماء لخبرا. وإن في الأرض لعبرا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟

يا معشر إياد أين الآباء والأجداد. وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا وأطول أجالا؟ طحنهم الدهر بكلكله. ومزقهم بتطاوله(10)

فقد تميزت الخطابة في هذا العصر بمجموعة من الخصائص أهمها:

الإيجاز وكثرة السجع أحيانا امتلاؤها بالأمثال والحكم.

سيطرة العاطفة عليها. دعوتها إلى سمو الأخلاق والتبصر وتحكيم العقل

سهولة ألفاظها وقصر جملها، ندرة الصور البيانية ووفرة المحسنات البديعية عدم استشهاد بالشعر،

اشتمالها على إشارات مثيرة للعصبية القبلية أو الحمية الجاهلية أحيانًا(11)

الخطابة في صدر الإسلام :

لقد تطورت وانتشرت الخطابة في هذا العصر بكثرة بمجيء النبي- صلى الله عليه وسلم-. الذي كان يعرض على قومه من قريش كل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم. وهو يخطب في الناس داعيًا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة والحسنة. محاولًا بكل طاقته ان يوقظ ضميرهم بما يصور لهم في قوة الكائن الأعلى مدبرًا الكون ومنظمه ونبذ المنافرات الجاهلية القائمة على التكاثر بالآباء والأنساب.

اتسمت الخطابة في هذا العصر بعد هجرة الرسول (ص) إلى المدينة. حيث أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بآداب رفيعة من السلوك السامي، مبيناً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به. فتناولت خطبه المشاكل الدنيوية كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة وعند ذلك من مشاكل حلَّت بما يحقق سعادة الجنس البشري وهناءته(12)

وعلى هذا كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ومن ثم كانت فرضًا مكتوبًا في صلاة ال جمعَ ثم مواسم الحج والأعياد.

ونمضي في عصر الخلفاء الراشدين. فتكثر بجانب خطب الجمع والأعياد والمواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة. وكذلك موقفه حيث ارتد كثير من العرب وامتنعوا على أداء الزكاة وكم من خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة، ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعدَّ منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد على المسلمين في كل مكان يحدّونه من الجزيرة.

ثم تكون الفتوح، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحض على الجهاد ونشر الدين الحنيف في أطباق الأرض. وترتفع أصوات القادة بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طالبين لما عند الله من الثواب. ولا نغلوا إذا قلنا إن بلدًا من بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القادة كخطبة المغيرة بن شعبة في القادسية وخالد بن الوليد في اليرموك، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلّة.

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة، فقد أخذت تحل مع المسلمين في كل بلد فتحوها. وكان هذا بدون شك عاملًا من عوامل نموها إذ تكاثر من يرد دونها ومن يحسنون حَوْكَهَا وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة.

ويتولى عمر بن الخطاب الخلافة فيكثر في الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث ومع كل خير يأتيه بفتح. وقد سار على هدى أبي بكر في استشارة أصحابه في كل مهم وكل ما يجد من تشريع. وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة. وكان هذا بدوره عاملا من عوامل نمو الخطابة في العصر ،وفي عهد علي تكثر الخطب بين أنصار علي وخصومه فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته.

وانتدب علي أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام. فخرجوا معه إلى صَفّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده. وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب بكثرة مفرطة وخاصة في صفوف علي وأصحابه. وكان هو نفسه خطيبا مفَّوهًا. وكان بجيشه غير خطيب من أمثال عمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة (13)

ومن خصائصها الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. البعد عن التكلف. التخلص من الصنعة اللفظية، بدأها بالحمد والثناء والشكر لله والصلاة على

النبي -صلى الله عليه وسلم-. نقاء الألفاظ واختياره. وحدة الموضوع. جزالة اللفظ ورصانته. إيراد الحجج والبراهين. الإقناع والتأثير في المستمعين واستعمال أساليب التوكيد والاستفهام. الأمر والنهي والدعاء. استعمال السجع في جل الخطب.

لقد نمت هذه الخطابة في هذا العصر نموًا واسعًا، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية. وقد دارت معانيها في القرآن الكريم وخطابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأحاديثه. وهي معانٍ جديدة لم تكن للعربية بها عهد. معاني هذا الدين الحنيف الذي بعث لغتنا ونثرها بعثا جديدًا.

العصر الأموي:

ازدهت الخطابة في العصر الأموي ازدهارًا. ولعل العرب لم يعرفوه في أي عصر من عصورهم القديمة، فقد كانوا أصحاب مواهب بيانية. عملت بواعث كثيرة على أن تتوهج هذه المواهب في الخطابة حينئذٍ. بسبب ما نشأ من خصومات سياسية عنيفة. فكان هناك خطباء الخوارج وخطباء الشيعة وخطباء الزبيريين والثوار المختلفين وخطباء الأمويين وكل منهم يحاول استمالة القلوب إليه بالتفنن في بيانه(14).

نمت الخطابة السياسية في هذا العصر ونهضت نهوضًا عظيمًا إذ دارت على كل لسان مؤيد أو معارض للدولة. ولعل حزبا لم يكثر خطباؤه كما كثروا في الخوارج إذ كانوا شديدي الحماسة لعقيدتهم ولم يدعوا لها سرًا كما دعا الشيعة في أكثر الأمر بل دعوا لها جهارًا شاهرين سيوفهم في وجوه بني أمية وولاتهم على أنه ينبغي أن نلاحظ أن جمهور خطبهم سقط من يد الزمن ولم يصلنا. لأن الناس من غير بيئتهم كانوا يتحرجون من روايتها. إذ كانوا يرون فيهم ثوارًا خارجين على الجماعة. ويظهر بها كتب الأدب والتاريخ (15)

وعلى نحو ما كان للخوارج خطباؤهم كان للشيعة خطباء كثيرون وكانوا على شاكلة خطباء الخوارج يندرون دائمًا ببني أمية. وأنهم اغتصبوا الخلافة. وساروا فيها سيرة جائرة عطَّلوا فيها أحكام الشريعة و ما رسمه القرآن ورسوله الكريم. وكانوا لا يزالون يرددون أن هم أصحاب الخلافة الشرعيون بغى عليهم بنو أمية إذ انتزعوا منهم ميراثهم عن الرسول الكريم وتدور هذه الأفكار دائما في خِطاباتهم وخطابة أئمتهم على نحو ما نجد عند الحسين بن الامام علي –رض ي الله عنه- حين اقترب من الكوفة واجتمع الناس من حوله ولقيته مقدمات الجيش الذي أرسله له عبيد الله بن زياد فقد انصرف إلى القوم بوجهه يقول في كلمة له:" أما بعد أيها الناس بأنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكنْ أرْضَ الله ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم والسائرين فيكم بالجور والعدوان(16)

ومن أبرز خطبائهم سليمان بن صرد وعبيد الله بن عبد الله المرِي وزيد بنعلي وابنه يحي. ولم يعش حزب الزبيريين طويلا،ولذلك لم يتكاثر خطباؤه حيث ظل نحو ثماني سنوات وكان هذا الحزب يدعوا إلى عودة الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد أبناء كبار الصحابة من قريش لا هؤلاء الأمويين الذين حولوا الخلافة إلى دمشق وأخذوا يحكمون الناس مستندين إلى القبائل اليمنية الشامية وبذلك ضاع الحكم من قريش.

وعبد الله بن الزبير خطيب هذا الحزب وكان مفوهًا بليغًا يعرف كيف يخلب الألباب بكلامه. ويستولى على النفوس لحلاوة منطقه، وهو في خطابته يتناول الأمويين بالقدح والتجريح. ومن خطبائهم نجد أخوه مصعب بن الزبير.

وكان يقف في الصف المقابل من هؤلاء الخطباء المعارضين (شيعة- خوارج- زبيريين) خطباء بني أمية يتقدمهم الخلفاء ثم الولاة والقادة. وممن أشتهر من الخلفاء بإحكام الصنعة في الخطابة مع جهارة المنطق وطلاوة الكلم معاوية وعبد الملك وعمر

بن عبد العزيز. فكانت خطبة هذا الأخير خطبه مواعظ خالصة يتحدث فيها عما ينتظم الإنسان من موت وانتقاله إلى دار الخلود ومحاسبته على ما قدَّمت يداه(17)

ومن أبرز خطبائها في الأمور السياسية نجد زياد بن أبيه الذي كان خطيبًا لا يبارى في جودة خطابته. يعرف يصوغ كلمه صوغًا نهش له الأسماع وتصغى له القلوب والأفئدة وقد نوه بخطابته كثير من معاصريه على شاكلة قول الشَّعبي:" ما سمعت متكلما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا أن يسيء إلا زيادًا فإنه كلما أكثر كان أجود كلامًا" وخطبه مثل خطب الحجاج تدور في موضوعين هي السياسة والمواعظ الدينية. وقد بقيت من خطبة الأولى شظايا وفقر وخطبة طويلة هي أروع خطبة سياسية خلَّفها هذا العصر. وهي الملقبة بالبتراء وسميت بذبك لأنها لم تبتدئ بالتحميد والتمجيد(18)

ونمت بجانب الخطابة السياسية الخطابة المحفلية بين أيدى الخلفاء والولاة. إذا أخذوا أصحابها يَعْنَوْنَ بتعبير كلامهم وخير من يمثلهم الأحنف بن قيس واحتدمت خطابة الوعظ والقصص الديني احترامًا وما فتئ أصحابها يطلبون كل وسيلة بيانية كي يؤثروا في الناس حتى انتظم لهم أسلوب بديع ثبتوه تثبيتا قويًا. وهو أسلوب نهض على حلي من الازدواج والخيالات والمقابلات ودقائق المعاني وقد مضوا يعلمون الشباب في البصرة والكوفة كيف يبرعون في الخطابة والمناظرة وبذلك أعدُّوا لنشأة علم البلاغة العربية وخير من يمثلهم الحسن البصري. (19)

الخطابة في العصر العباسي:

نشطت الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها في بيان حق العباسيين في الحكم، وكانوا يحسون منذ أول الأمر أن أبناء عمهم العلويين يطغون عليهم و استئثارهم بالخلافة من دونهم. فمضوا يؤكدون في خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق حيث اشتهر منهم أبي العباس السفاح وأبو جعفر المنصور.(20)

وبعد إضعاف العباسيين للأحزاب السياسية ضعفت الخطابة السياسية لكنها سرعان ما عادت بسبب فتنة الأمين والمأمون،ولكن لم تعد لها قوتها القديمة في العصر الأموي وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستمتاع بكلام الخطيب والفتنة بأساليبه وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة المحْفلية لأن وفود العرب لم تعد تغد على قصور الخلفاء، فاقتصرت الخطابة المحفلية على بعض المناسبات ،أما الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ فقد حافظت على ازدهارها في هذا العصر وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها العصر بنبي أمية كانوا يشاركون فيها لهذا العصر، إذ يقول الرشيد في خطبته: "حصّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخير أن النبي صلى الله عليه وسلم. قال:" لا إيمان لمن لا أمانة له و لادين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له". إنكم سفْرٌ مجتازون وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإناجة فإنه الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين..(21) لكن الخطابة الدينية كذلك وإن أخذت تضعف على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطا عظيما في المساجد أين كانت تعقد حلقات للوعاظ والقصاص. وكان الناس يتحلقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرسميون الذين تعينهم الدولة للخطابة أيام الجمع ومنهم غير الرسميين، وهم الجمهور الأكبر، وكانوا يستمدون وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث الشريف وقصص الأنبياء والمرسلين وكانوا يعنون بعون الضعفاء والمساكين واليتامى والجهاد وحرب الأعداء، وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين وكان أبرزهم أبي العباس الطبري ويحي بن معاذ وأبو حمزة الصوفي(22)

وبمرور الوقت استعجم المسلمون، وملك العرب ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة. عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباته المصري وأخذوا يرددونها فوق المنابر، ودرجوا على هاته الحال المخزية تلك القرون الطويلة حتي أدركتها عوامل النهضة(23)

ولأنّ العصرالعباسي عصر انفتاح على الثقافات الأجنبية كاليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التي أظلتها الدولة العباسية (24) فإن العرب لم يكتفوا بما توفر عندهم من تجارب بل ترجموا ما كان عند غيرهم من إعداد الخطابة وفنونها إلى العربية ومن الكتب المهمة التي ترجمت في هذا العصر كتاب الخطابة لأرسطو الذي ترجمه إسحاق بن حنيف وعلق عليه الفارابي وكان لظهور الفرق الكلامية وخصوصا المعتزلة أكبر الأثر في ازدياد رونق الخطابة.

بالإضافة للخطابة نجد الموعظة في هذا العصر قد انتشرت انتشارًا واسعًا بسبب حاجة الخلفاء للوعاظ فكانوا يشاركونهم في مجالسهم لوعظهم وأحيانًا كانوا يستقدمونهم فيعظونهم حتى يبكوهم مما يوقعون في نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم وهم في تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاص ي والسيئات ومن كبارهم الذين عرفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدي الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلي الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي وابن السماك واعظ الرشيد. (25)

ومن خصائص الخطبة في هذا العصر جزالة الألفاظ والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. عدم الالتزام بالسجع، الإيجاز إلى ما لا تدعوا إليه الحاجة

عصر الأندلس:

لم تصل الخطابة في الأندلس كما ونوعا إلى مستوى الذي وصلت إليه في المشرق ففي عصر الولاة استعمل هذا الضرب من النثر بكثرة وذلك بدواع كثيرة أهمها: الحث عن الجهاد والقتال ضد توسيع رقعة الدولة الأموية وتثبيت أقدامها في ذلك المجتمع المتنبت حديثا ،وفيما أخذ مجال الخطابة يضيق فانحصرت مهمته في المجالس الخاصة وفي المناسبات وغالبا ما كانت الخطب تقال بطريقة الارتجال وهي طريقة استحواها أهل الأندلس فكانوا يتسابقون من خلال القطع الأدبية التي كانوا يلقونها في مجالسهم ولاسيما تلك التي تتعلق بالحكام والوزراء ليحض كل خطيب منهم بإعجاب الحاضرين وليكون تأثيره فيهم كبيرًا .وهاته خطبة أمير الأندلس عبد الرحمان الداخل في قومه يوم حربه مع يوسف الفهري آخر ولاة الأندلس يحثهم فيها على الصبر والجهاد يكتسبوا المعركة "هذا اليوم أسس ما يبنى عليه إما ذل الدهر وإما عز الدهر فأصبروا ساعة فيها لا تشتهون تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون".

ومن أشهر خطبائها نجد لسان الدين الخطيب وطارق بن زياد في خطبته عن الحث على الجهاد صاحب مقولة:" أين المفر البحر من ورائكم والعدو من أمامكم".

أما من حيث خصائص الخطبة في هذا العصر سهولة العبارة ووضوح المعاني والبعد عن التكلف والسجع- تناولها المواضيع السياسية بكثرة وكذلك نجد الإيجاز والبلاغة في القول.

الهوامش:

1-ابن منظور الأنصاري الإفريقي. لسان العرب. م1. دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1. 1424هـ 2003.ص181.

2 أحمد محمد الحوفي. فن الخطابة. دار العلوم. القاهرة مصر ط4. د.ت. ص10.

3-ايليا الحاوي. فن الخطابة وتطوره عند العرب. دار الثقافة بيروت لبنان ط2. د.ت. 31.

4-إيليا الحاوي، فن االخطابة وتطوره عند العرب، ص32-33.
5-شوقي ضيف. الفن ومذاهبه في النثر العربي. دار المعارف. القاهرة مصر ط13. 2003 ص144.
6-حنا الفاخوري. الجامع في تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم. دار الجيل بيروت. لبنان ط. 1426هـ 2001م. ص11.
7-حنا الفاخوري. الجامع في تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم. دار الجيل بيروت. لبنان ط. 1426هـ 2001م. ص.116-117.
8-محمد مرتاض- قراءة جديدة للنثر العربي القديم من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر ط1. 2012 ص 27- 28.
9-ذكر صاحب عيون الأثر محمد بن محمد بن محمد اليعمري عند ذكر خبره أنه عاش 700 سنة، وذكر قصة إسلام قومه بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم وهم عبد القيس عندما وفدوا عليه، فسألهم عنه فقالوا كلنا نعرفه، فأخبرهم أنه رآه وسمعه في سوق عكاظ في الجاهلية، وذكر له خطبة رائعة أثنى عليها النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر حاضرا يومها فذكرها أمامه بحذافيرها إذ كان يحفظها...ينظر: محمد بن محمد بن محمد اليعمري، عيون الأثر، ج1، ص147. وما بعدها...
10- أحمد حسن الزيات تاريخ الأدب العربي. دار المعرفة بيروت لبنان ط1، 1428- 2007 ص 19- 20.
11-محمد مرتاض، قراءة جديدة للنثر العربي القديم، ص32.
12-شوقي ضيف- العصر الإسلامي. ص109.
13-شوقي ضيف. العصر الإسلامي. ص 110.
14-شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 383.
15-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، 243.
16- شوقي ضيف- العصر الإسلامي. ص414- 411.
17-شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص419.
18-الجاحظ، البيان والتبيين ج3، ص 62.
19-شوقي ضيف- العصر الإسلامي ص484.

20-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط6، القاهرة، مصر، 1966، ص448-449
21-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول،ص 410- 411.
22-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط2، القاهرة، مصر، 1971، 126، 127.
23-أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط11، 1428هـ-2007م، ص 118.
24-شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، المرجع نفسه، ص 448.
25-شوقي ضيف، العصر العباسي الأوّل، ص.354

الخطابة (وتطورها) في العصر الجاهلي-في صدر الإسلام-وفي العصر الأموي (حصص تطبيقية)

الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي:

كان العرب في شبه الجزيرة العربية يعيشون في إطار قبائل متفرقة، لكل قبيلة من قبائلهم رئيسها،وسيادتها الخاصة بها، فلم تكن لهم حكومة تجمعهم، وكانوا يعيشون في صحراء قاحلة، وبيداء واسعة، وبيئة صعبة قاسية.

وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم والغارات، وتحدث العداوات والمنازعات، وكان يعقبها صلح ووئام، كما كانوا يتفاخرون بالأحساب والأنساب والمآثر، وتحاول كل قبيلة أن ترفع بين القبائل ذكرَها، وتعليَ من قدر نفسها أمام غيرها.

كما كان العرب يقومون بإيفاد الوفود عنهم لتهنئه أو لتعزية. وقد كانوا يتشاورون فيما بينهم لعقد أمر أو فضّه، كما كان الحال في دار الندوة إذ ذاك في مكة، وقد كانوا أُولِي غيرة، وذوي مروءة ونجدة.

كما كانت تتفشى فيهم بعض العادات القبيحة مثل وأد البنات خشية الفقر والإملاق، بينما كان منهم من يعارض مثل هذه العادات القبيحة ويستهجنها ويحاربها، ويدعو إلى التنزه عنها، والتخلص منها.

وهكذا كانت حال العرب وطبيعة بيئتهم وظروفهم مشجعة على الخَطابة، ومثيرة لها، بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به إلى حد بعيد من حرية التعبير عن آرائهم، وما كانوا يتحلون به من شجاعة وإقدام، وما كانوا يتصفون به من البلاغة والفصاحة، والتمكن من ناصية اللغة، حيث كانت اللغة طيِّعة لهم، مثرية لكلامهم، ومزينة لأدبهم.

كل هذا ونحوه أسهم في إنعاش الخَطابة عند العرب في الجاهلية، وجعل لها مكانا في حياتهم ومكانة، ودعت إليها الحاجة، وتعددت أغراضها، وكثرت

مناسباتها، وتباروا فيها، وتفننوا في إلقائها، وتسابقوا في تحسينها وتجويدها، واشتهر منهم خطباء كثيرون.

"وأشهر خطبائهم في هذا العصر قُسُّ بنُ ساعدةَ الإياديُّ،(1)

وعمرو بن كلثوم التغلبيُّ، وأكثمُ بن صيفيّ التميميُّ، والحارث بن عباد البكري، وقيس ابن زهير العبسي، وعمر بن معد يكرب الزبيدي(2) "

ولقد كان لكل قبيلة شاعر وخطيب، وكانت منزلة الشعراء في الجاهلية مقدمة على الخطباء، ثم تأخروا عن الخطباء فيما بعد، و قد ذكر الجاحظ عن أبى عمرو بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم، ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوهم ومَن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعرُ غيرهم فيراقب شاعرهم، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر(3) وكانت خطبهم على ضربين: منها الطوال ومنها القصار، وقد وُجد أن عدد القصار أكثر، لأن رواة العلم إلى حفظها أسرع(4)

وكان خطباء العرب يلجؤون إلى الإشارة بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم، وأحيانا بالعصيّ (5)

وكانوا يجلسون في خطب النكاح، ويقومون في خطب الصلح، وكلِّ ما دخل في باب الحَمَالة، وأكّد شأنَ المخالفة، وحقق حرمة المجاورة، وكانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام، والمجامع الكبار(6)

وقد قيل إن أول من خطب على العصا والراحلة قُسُّ بن ساعدة الإيادي، وأنه أول من أظهر التوحيد بمكة وما حولها مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل، وأنه أول من قال أما بعد، وقال بعضهم إن أول من قال أما بعد هو داود عليه السلام (7)

وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة جهير الصوت، سليم المنطق، ثبت الجنان(8)

وهكذا كانت الخَطابة في ذلك العصر على درجة كبيرة من التقدم والرقيّ لما ذكرنا من دواعٍ، أدت كذلك إلى تنوع أغراضها، وتباين موضوعاتها، فكانت خطب التحريض والإثارة على القتال، وخطب الصلح وفض المنازعات، وخطب الزواج، وخطب التهنئة والرثاء، وخطب المنافرات والمفاخرات، وخطب المشورة، والخطب الإصلاحية التي كانت تتسم بطابع الوعظ.. إلى غير ذلك من الأغراض.

نماذج من خطب ذلك العصر:

أ- خطبة كعب بن لؤيّ حصّة تطبيقية:

قال ابن كثير رحمه الله: روى أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن بن زبالة عن محمد بن طلحة التيمي عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي سلمة قال: كان كعب بن لؤيّ يجمع قومه يوم الجمعة، وكانت قريش تسميه العَرُوبَة، فيخطبهم، فيقول: أما بعد: فاسمعوا وتعلموا، وافهموا واعلموا، ليل ساج (ساج سْوجًا وسوَاجًا وسَوَجانًا: جاء وذهب.) (9) ونهار ضاح (ضاح: أي بارز ظاهر.) (10) والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، والأنثى والذكر، والروح وما يهيج إلي بِلي (أي: إلى فناء.)

فصلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمّروا أموالكم، فهل رأيتم من هالك رجع؟ أو ميت نُشر؟ الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون، حَرَمُكم زيّنوه وعظّموه، وتمسكوا به فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم، ثم يقول:

ثم يقول: والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر، ويد ورجل؛ لتنصَّبتُ (نَصَب الشيء أقامه ورفعه، وناقة نَصْبَاء: مرتفعة الصدر، وتنصَّب مطاوع نَصَبَ، يقال نصَّبَه فتنصّبَ، ويقال: تنصَّب الطائر: ارتفع.) (11) فيها تنصُّب الجمل، ولأرْقلتُ (أرْقَلَ في سيْرِه أسرع، وإلى كذا وفيه جدَّ وأسرع، والمِرْقَالُ: السريع أو الكثير الإرقال.) (12) بها إرقال العَجِلِ، ثم يقول:

ياليتني شاهدا نجواء دعوته ♦♦♦حين العشيرة تبغي الحق خذلانا

قال: وكان بين موت كعب بن لؤي ومبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسمائة عام وستون سنة. (13)

وهذه الخطبة تطلعنا على بعض ملامح الأسلوب الخطابي في ذلك العصر، حيث يتبين فيها، روعة اللفظ وقصر الجملة مع تمام الإفادة من ناحية المعنى، والاقتباس الشعري، كما يتبين منها أنها لغرض النصح والإرشاد الديني، حيث يذكرهم بفناء الدنيا، ويحثهم على التحلي بمكارم الأخلاق، وتعظيم الحَرَم وما يتعلق به من شعائر، والإشارة إلى ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولعل هذا راجع إلى وجود بقايا من دين إبراهيم عليه السلام لديهم، وإلى تأثرهم فكرياً ببعض أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم من خلال كتبهم التي بشرت به عليه الصلاة والسلام، كما يتبين كذلك أنها لم تكن من الخطب الطوال.

ب- خطبة أبي طالب في زواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع (الزرع: الولد) (14) إسماعيل، وضِئْضِئِ (الضِّئْضِئُ: الأصلُ، يقال هو من ضِئْضِئٍ كريم، جمع ضَآضِيء.) (15) معدّ، وعنصر مُضَر، وجعلنا حَضَنَة بيته، وسُوَّاسَ حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجاً وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان في قُلٍّ (القُلّ بالضم: القليل، ورجلٌ مُقِلٌّ وأقَلُّ: فقيرٌ وفيه بقية. القاموس المحيط ص 1356، ورجل قُلّ: فرد لا أحد له.) (16) فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمدٌ مَن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالي، وهو بعد هذا والله له نبأ عظيم وخطر جليل.(17)

الخطابة في صدر الإسلام (حصة تطبيقية):

إن الإسلام نهضة عامة شاملة، لم يعهد لها من قبل في العالم مثيل، وكانت الخطابة عماد هذه النهضة وأداة فعالة من أدواتها، وكانت هذه النهضة دينية في روحها وأساسها، والدين فيض من النور الإلهي والرحمة الربانية، يمتد من السماء إلى الأرض، يضيء ظلماتها، ويبدد غياهب الجهالة فيها، ويؤدي رسالته الأولى في

إصلاح المجتمع البشري، وتحقيق أسباب السعادة له في حياته، وليس الإسلام دين جمود، فيقف عند المطالب الأخروية، بل جاوزها إلى تحقيق المصالح الدنيوية فكان لا بد له من أن يتعرض لكل ما به صلاح أمور البشرية، في العقيدة والتشريع والمعاملات والحكم والسياسة والاجتماع والأخلاق والفكر، ولم يدع مجتمعا إلا حض عليه، وأقام من شأنه، وطلب فيه من القول ما هو ضروري له، كخطبة الجمعة والعيدين وموقف عرفات وغيرها، ولذلك كان صاحب هذه الدعوة يمثل الإمام الهادي، والفيلسوف المشرع، والحاكم العادل، والزعيم السياسي، والقائد الحربي، والمصلح الاجتماعي، والرائد الفكري، وكذلك كان خلفاؤه من بعده.

وقد جالت خطابة هذا العصر في هذه الميادين جميعا، وإن كانت وجهتها الرئيسية وجهة دينية، وكان غرضها الأساس إقامة عمود الدين، ورفع منار الإسلام، فكانت هناك خطب دينية، شملت العقائد والدعوة إلى الإسلام، والتشريع بما فيه من تبين الحدود وإقامة معالم الحلال والحرام، والوعظ والإرشاد بما فيه من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وحث على مكارم الأخلاق، وتبشير وإنذار

الطابع العام للخطابة في صدر الإسلام:

1 -ظهور الطابع الديني :من دعوة إلى الإسلام، ودفاع عنه، وبيان للعقائد، كوجود الله ووحدانيته وقدرته وخلقه الكائنات، والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وسائر الغيبيات، وسن الشرائع والأحكام المفيدة للناس، المنظمة للحياة الشخصية وللمعاملات بين الناس، المبينة للفرائض، الموضحة للحلال والحرام، ووعظ للعامة، وحث لهم على التزام حدود الشرع الحنيف، وقصص فيه عبرة وزجر.

2 -اختيار خطب ذات أهداف إنسانية عامة، وغايات كريمة سامية، من تحرير النفوس والعقول والأرواح من قيود الشرك والضلالة، وإخراجها من ظلمات الوثنية والجهالة.

3 -اتساع مجال الخطابة الاجتماعية، فقد أخذت دائرتها تتسع، وتتجه في نواحي الحياة العامة وجهات مختلفة نافعة، وتعرضت من التعاليم والآداب والشئون العامة إلى ما لا غنى عنه للناس في مجتمع يتحضر.

4 -اتساع دائرة الخطابة، والخروج بها إلى مجال التعبير عن الأغراض السامية والفكر الراقي، في الكون وقيامه، والوجود ونظامه، والمجتمع وعوامل بقائه وارتقائه، وما ينبغي أن يقوم عليه من أسباب، ويسوده من آداب، والبعد بها عن الإسفاف بالانحصار في مطالب العيش الرخيصة، فكان انقلابا كبيرا أن ترتفع الخطابة لتعبر عن الحياة الإنسانية في صراعها الأدبي والعقلي والعاطفي المحتدم حول المبادئ والمعتقدات والآراء، ولا تسف لتصور الحياة الحيوانية، في صراعها الدموي حول لقمة العيش وتنازع البقاء، وإن تسعى سعيها؛ ليقوم الحق والخير والبر والفضيلة مقام الباطل والشر والإثم والرذيلة.

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم:

إن محمدا -صلى الله عليه وسلم- قبل كل شيء جاء؛ ليبلغ رسالات ربه، فمهمته الأولى هي الرسالة والتبليغ، وما هذه المهام الكثيرة التي تولاها إلا فروع لتلك المهمة الكبرى، ومعينة عليها، نبتت على حواشيها، ونشأت في خدمتها، والرسالة والتبليغ لا يتم إلا ببلاغة وبيان؛ لأن البلاغ والتبليغ إيصال الكلام للسامعين على أحسن صورة، وبما به يكون الإفهام والإقناع، فلكل كلام وزن، وكل قول بمقدار، قال تعالى{ :وَمَا

أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {(سورة إبراهيم: الآية ٠٤)، وقال سبحانه عن نبيه داود} :وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ {(سورة ص: الآية ٠٢٠)، ولهذا قال موسى لربه} :وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ {(سورة القصص: الآية ٠٣٤)، فإذا كانت الفصاحة والبلاغة مطلوبة في دعوة موسى وغيره من الأنبياء، فرسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- أولى وأوجب، ودعوته أعم وأرحب، وقومه فرسان البيان، وأئمة القول.

لهذا كان من أبرز صفات الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأجلى آيات عظمته البلاغة البليغة، وأنه في الذروة العليا من البيان وفصاحة اللسان، وأن التبليغ البليغ كان السمة المشتركة بين أفانين قوله كله، وما كان لنا أن نقول في هذا المقام بعد أن قال تعالى عنه ما قال، وقال هو عن نفسه" :أعطيت جوامع الكلم "نشأ الرسول -صلى الله عليه وسلم- نشأة قرشية بدوية خالصة، واسترضع من بني سعد بن بكر، فاجتمعت له فصاحة اللسان واللغة، واللهجة الجميلة الوقع، يستريح لها السمع، والمنطق العذب المفصل، تجد النفوس حلاوته. كما اجتمعت له القدرة على تأليف القلوب، وتحصيل الثقة، إلى قوة الإيمان بدعوته، وغيرته البالغة عليها، وحرصه الشديد على نجاحها، فاجتمع له بذلك كل أسباب البلاغ للرسول، والنجاح للخطيب، وثقة القوم بصدق الداعي أو الخطيب أساس إجابته، وشرط لنجاح دعوته، وقد كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قومه مثلا للأمانة والصدق، حتى لقبوه فيما بينهم "الصادق الأمين."

هذه هي الخطوط الأساسية العريضة البارزة التي تشير إلى شخصية الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتومئ إلى نزعاته، وقد بقي أن تصل بينها وبين خطابته، وتنظر آثارها فيها.

من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم:

١ -خطبته في عشيرته:

عندما نزل قوله تعالى{ :وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }(سورة الشعراء: الآية ٢١٤.) أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصفا، فصعد عليه، ثم نادى الناس، فاجتمعوا عليه، فقال" :يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيّ؟ قالوا نعم، ما جربنا عليك كذبا، قال :إني نذير لكم بيد يدي عذاب شديد."(18)

فما سمعنا بمثل هذا الإيجاز، ولا بمثل هذا الإعجاز، لقد جعل من خطبته قضية منطقية، ألزمهم بها الحجة، وانقطع بها ما كان يمكن أن يقوم من جدل.

فهذا قول المبلّغ، الذي يحرص على ألا يقيم بينه وبين غايته حواجز من التكلف والصنعة، والغموض، وسبيل الرسول الذي يريد أن يصل إلى قلوب سامعيه، من أقرب سبيل، ويبلغ رسالته كأحسن ما يكون التبليغ..

٢ -أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

"إن الرائد(المرسَل في طلب الكلا.) لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون،

ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا"(19)

مميزات خطب النبي -صلى الله عليه وسلم:

1- كان -صلى الله عليه وسلم -يقول في حمده لله والثناء عليه:

"إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله."

2 - كان -صلى الله عليه وسلم -يقتبس من القرآن الكريم في خطبة فيقول:

{وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا. } (1 سورة الزمر: الآية ٣٠.)

ويقول{ :يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. }(سورة الأنبياء: الآية ٣٤.)

3 -وكان -صلى الله عليه وسلم- يعظ في خطبه ويحذر بالقرآن وخصوصا سورة "ق "لما حوته من ذكر البعث والموت، والمواعظ الشديدة، والزواجر الأكيدة.

4-وكان -صلى الله عليه وسلم- يخطب في الجمعة، قائما، ثم يقعد قعدة لا يتكلم ثم يقوم فيخطب خطبة أخرى.

5 -وكانت خطبته -صلى الله عليه وسلم- مقتصدة قصيرة.

6-وكان -صلى الله عليه وسلم- إذا دعا في خطبته لم يرفع يديه.

7- وكان -صلى الله عليه وسلم- إذا دعا في خطبته لا يخص نفسه بالدعاء.

8- وكان المؤذن لا يؤذن إلا بعد جلوس النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر.

9- وكان -صلى الله عليه وسلم- إذا سمع النداء وهو جالس على المنبر يردد ما يقوله المؤذن.

10- وكان -صلى الله عليه وسلم- إذا انتهى المؤذن من النداء استقبل الناس بوجهه ليخطبهم، واستقبله الناس ليسمعوه.

من خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

1 -خطبته بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لما قبض الله نبيه صلوات الله عليه لم يجسر أحد من المسلمين على نعيه واضطرب الناس وماجوا، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه :إن رسول الله لم يمت. أقبل الصديق فكشف عن وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- فقبله، وقال :بأبي أنت وأمي طبت حيا وطبت ميتا. وخرج من عنده فبدر الصحابة بخطبته المشهورة بعد أن حمد الله، وأثنى عليه:

"أيها الناس إن من كان يعبد محمدًا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، والله قد نعاه الله إلى نفسه في أيام حياته فقال} :إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ {، ثم قال} :وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ {و} كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ {،(٣ سورة آل عمران: الآية ١٨٥.) ثم قال} :وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ {(سورة آل عمران: الآية ١٤٤.) إلا أن محمدا قد مضى لسبيله، ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به، فدبروا، وانظروا، وهاتوا آراءكم"، فبكي الناس، ونادوه من كل جانب، نصبح وننظر من ذلك إن شاء الله٥ (20).

الخطابة في العصر الأموي

تقديم:

قامت الدولة الأموية بعد انتهاء الخلافة الراشدة بمقتل سيدنا عليّ بن أبي طالب، يوم 17 رمضان عام 40 هـ، ويعد بدء الدولة الأموية من تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما لمعاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما، في) مسكن (يوم 25 ربيع الأول عام 41هـ، واستمرت حتى معركة" الزاب "التي جرت بين جيوش العباسيين وبني أمية، حيث هُزم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وذلك في 11 جمادي الأولى عام 132 هـ، وبذا فقد دامت هذه الدولة ما ينوف إحدى وتسعين سنة، وقد توالت عليها أسرتان، وكان خلفاؤهما اثني عشر خليفة.

-1الأسرة السفيانية، وقد حكمت ثلاثة وأربعين عاما (21 - 64هـ)

-2الأسرة المروانية، وقد حكمت سبعة وستين عاما (64 - 132 هـ). (21)

ويكاد يجمع المؤرخون للأدب العربي على أن الخَطابة شهدت في العصر الأموي أزهى عصورها، وأنها راجت رواجًا كبيرًا، لاسيما في أول قيام الدولة، ثم في مراحلها المختلفة.

وقد ساعد على هذا توفرُ دواعي الخَطابة في ذلك العصر، والتي كان أبرزها وجود الخلافات المذهبية والأحزاب السياسية منذ فجر الدولة، بل منذ خلافة سيدنا علي كرم الله وجهه، فقد ظهرت الشيعة والخوارج، وكان ثَمّ حزبٌ للإمام عليّ، وآخرُ لسيدنا معاوية، ثم بعد ذلك تتابعت الفتن والأحداث، فكان استشهاد الإمام الحسين، " ولما وصل خبر مقتل الحسين بن علي إلى الحجاز؛ أعلن عبد الله بن الزبير خلع يزيد، وبدأ يأخذ البيعة لنفسه من الناس(22)

وكان من أمر ابن الزبير مع الأمويين من الحروب ما كان، كما قامت جماعة من الشيعة بالعراق واتفقوا على أن يأخذوا بثأر الحسين بن عليّ، ويقتلوا مَن قتَله .(23) ثم كانت حركة ابن الأشعث التي خلع فيها يد الطاعة من الخليفة عبد الملك بن مروان، إثر خلاف وقع بين ابن الأشعث والحجاج بن يوسف بعد عام 80 هـ، وغير

هذا من الأحداث، فضلا عن أن الخوارج بقوا شوكة في وجه الأمويين، ومصدر إثارة ضدهم.

في مثل هذه الأجواء تروج الخَطابة، ويعمد كل حزب أو فريق إلى التركيز عليها كسلاح إعلاميّ خطير في استمالة الآخرين لصفه، والانتقاص من خصومه.

وقد كان من عوامل قوة الخَطابة أيضا: حركة الفتوحات الإسلامية وتوسعها.

كما ساعد على ازدهار الخَطابة في هذا العصر عوامل أخرى:

"منها: الجدل المحتدم بين الفرق الدينية، ومنها: كثرة الوفود على الخلفاء والولاة، وقيام بعض الوعاظ بالخَطابة في المساجد ووعظ الناس، منذ نصّبهم معاوية لهذا الغرض، ومنها: إقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون ويدرسون، ونماء الثقافة اللغوية والأدبية في تلك الحقبة، والعناية بحفظ ما خلفه السابقون" (24)

ومما ساعد على ازدهارها كذلك أنه " كانت تُعقد مجالس للمباراة في الخَطابة، والسبق فيها، وكثيرا ما كان يُدعَى الشخص إلى القول مفاجأة، ليُختبَر مقدار بيانه، وقوة جنانه، وحضور بديهته، ونهوض حجته، ومن ذلك ما عقده عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق من مجلس للخَطابة، تبارى فيه خالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى، وواصل ابن عطاء، وقد نال في ذلك المجلس قصبَ السبق واصلُ بن عطاء(25)

وكان للخَطابة في ذلك العصر خصائصها الفنية الكثيرة، ومنها:(26)

-**1**الإعداد، حيث تنم خطب كثيرة عن العناية بإعدادها، والتأني في صوغها والتدبر في ترتيب أجزائها، وتنسيق أفكارها، والتأنق في أسلوبها.

-**2**افتتاح الخطب كان صورة من افتتاحها في صدر الإسلام في الأعم الأكثر.

فأكثرها مبدوء بالحمد لله والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله، وبعضها مبدوء بالتهديد والوعيد لتنبئ عن غضب الخطيب وترهيب السامعين بشديد عقابه، كبعض خطب الحجاج، وبعضها مبدوء بالشتم والتوبيخ لأن المقام مقام تقريع وتأنيب، مثل بعض خطب زياد، وكان بعضها يبدأ بالموضوع مباشرة، وغير هذا من الافتتاحيات.

-3بالنسبة لأجزاء الخطبة، بعض الخطب قائمة كلها على عَرْض الموضوع، وبعضها مقسمة إلى مقدمة، وعَرْض، وخاتمة.

-4وتمتاز الخَطابة في هذا العصر بمشابهتها الشعر في إبراز المعاني والأفكار، وتوضيحها وتجسيمها في قوالب من التخيل والتضاد، كالتشبيه والاستعارة، والكناية، وعرض الصور المتضادة، والطباق، ونحوها.

-5وأما التعبير الخطابي فيتسم بقوة العبارة وجزالتها، وقصر الجمل، والعناية بالموقع والرنين.

-6وكما كانت الخطب في صدر الإسلام، فإن خطب هذا العصر يغلب عليها كلِّها الإيجاز المعتدل، ويقل فيها التوسط القريب من الطول، وتندر فيها الخطب المسهبة المطولة.

-7وقد تأثر كثير من الخطباء في خطبهم بالقرآن الكريم، فكثر اقتباسُ آيات من القرآن، ووضْعُها المواضع الملائمة لها من الخطبة، كما كان بعض الخطباء يعمدون إلى استمداد بعض مضامين خطبهم من القرآن الكريم.

-8وفي كثير من الخطب كان هناك استشهاد بالشعر، أو اقتباس من عباراته ومعانيه.

وهكذا بدت لنا ملامح الخَطابة في العصر الأموي، وقد ظلت رائجة مزدهرة لما ذكرنا من أسباب ودواع، وخاصة ما كان من أمر الخصومات والثورات التي اعتمدت على الخَطابة، وجعلها وسيلة دعاية وحرب ضد الخصوم.

"ولما هدأت كل هذه الخصومات، واستقر الأمر لبنى مروان؛ انبعث في الشعر نشاط قلل من نشاط الخَطابة وأهميتها، ولكنها لم تنقطع، وقد كان الخوارج حتى آخر الدولة مسعرًا للخَطابة كثيرًا (27)

ولقد اشتهر في هذا العصر خطباء كثيرون منهم معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، رضوان الله عليهما، وواصل بن عطاء، وزياد، والحجاج، ومنهم أبو واثلة إياس بن معاوية المزني، وقد أفاض الجاحظ في الحديث عن بلاغة الأخير وفصاحته وجودة فراسته (28)

ومنهم عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق، وأبوه سعيد بن العاص بن أمية(29) ومنهم سُحْبان وائل(30) وعمر بن عبد العزيز.

من خطب هذا العصر:

أ- خطبة لعمر بن عبد العزيز:

قال ابن عبد الحكم: وخطب عمر بن عبد العزيز الناس فقال: أيها الناس: إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ، وإنما أنا منفّذ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل، لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم، ألا وإني أثقلكم حملا، يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض، واجتناب المحارم، أقول قولي هذا، واستغفر الله العظيم لي ولكم (31)

ب- خطبة للحجاج حين أراد الحج:

يا أهل العراق: إني أردت الحج، وقد استخلفت عليكم ابني محمدًا، وما كنتم له بأهل، وأوصيْته فيكم بخلاف ما أَوْصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار؛ فإنه أوصى أن يُقبل من محسنهم ويُتجاوز عن مسيئهم، وأنا أوصيته أن لا يَقبل من محسنكم ولا يَتجاوز عن مسيئكم، ألا وإنكم قائلون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفي، تقولون: لا أحسن الله له الصحابة؛ وإني أعجّل لكم الجواب: فلا أحسن الله عليكم الخلافة، ثم نزل .(32)

جـ- خطبة لأبي حمزة الشاري " من الخوارج" :

خطب أبو حمزة الشاري بمكة، فصعد المنبر متوكئا على قوس عربية، فخطب خطبة طويلة، قال:

يا أهل مكة، تعيرونني بأصحابي، تزعمون أنهم شباب، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابًا؟ نعم شباب والله مُكْتَهِلون (اكْتهل: كاهل، أي صار

كَهْلًا، والكَهْل من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين، جمع كُهول وكُهَّل، وكُهْلان.) (33) وقيل الكهل هو من جاوز أربعًا وثلاثين إلى إحدى وخمسين.) (34) في شبابهم، عِميّة عن الشر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم، قد نظر الله إليهم في آناء الليل متثنية أصلابهم بمثاني القرآن، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقا إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقةً كأن زفير جهنم في أذنيه، قد وصلوا كَلال (الكَلال: التعب.)

ليلهم بكَلال نهارهم، أَنْضَاء (أَنْضاء: جمع مفرده نِضْو بكسر أوله. والنِّضْو: المهزول من الحيوان، ويقال: فلان نِضْو سفر: مجهَد من السفر، وثوب نِضْو: خلق، وسهم نِضْو: فاسد من كثرة ما رمِي به.) (35)

عبادة، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام، مستقلون لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله، منجزون لوعد الله، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فُوِّقت،(فوّق السهم: عمل له فُوقا، والفُوق من السهم موضع ثثبيت الوتر منه.) (36) ورماحهم قد أُشْرِعَت (يقال: أشرع نحوه الرمح: سدّده.) (37)

وسيوفهم قد انْتُضِيَت (انتضى السيف: أخرجه من غِمْده.) (38) وبرقت الكتيبة، ورعدت بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، فمضى الشاب منهم قُدما حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، قد زُمِّلت (زمّله: أخفاه، وبثوبه وفيه: لفّهُ.) (39) محاسن وجهه بالدماء، وعُفِّر جبينه بالثرى، وأسرع إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء، فكم من مقلة في منقار طائر، طالما بكى صاحبها من خشية الله، وكم من كف بانت عن معصمها، طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده، وكم من خدّ عتيق وجبين رقيق، قد فلق بعُمُد الحديد، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها في الجنان، ثم قال: الناس منا ونحن منهم، إلا عابد وثن، أو كفرة أهل الكتاب، أو إمامًا جائرًا، أو شادًّا على عضده (40).

الهوامش:

1-ضبطه بضم القاف عليُّ بنُ هبةِ اللهِ بنِ أبي نصر بنِ ماكولا، في كتابه (الإكمال)، باب قَسّ وقُسّ وقُشّ. دار الكتب العلمية. بيروت. ط الأولى 1411هـ..

2- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي.. ص 20. دار نهضة مصر. القاهرة.

3-البيان والتبيين 1 /241.

4-البيان والتبيين، 2 /7

5-البيان والتبيين، 3 /116 بتصرف.

6-البيان والتبيين، 3 /6 - 7 بتصرف.

7-راجع الأوائل لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري. ص 44 - 450 دار الكتب العلمية. بيروت. ط الأولي 1407 هـ 1987م.

8- تاريخ الأدب العربي، ص 20، وراجع البيان والتبيين 1 /120 - 121.

9- المعجم الوسيط 1 /478.

10- يراجع مادة ضحا في المعجم الوسيط 1 /555.

11-المعجم الوسيط 2 /961، القاموس المحيط ص 177.

12-المعجم الوسيط 1 /379.

13- البداية والنهاية. الحافظ ابن كثير الدمشقي 2 /227 تحقيق د/أحمد أبو ملجم وآخرين. دار الريان للتراث. القاهرة. ط الأولي 1408 هـ 1988م.

14-القاموس المحيط ص 936.

15-المعجم الوسيط 1 /552.

16-المعجم الوسيط 2 /785.

17- صفة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي 1 /37. تحقيق إبراهيم رمضان، وسعيد اللحام. دار الكتب العلمية. بيروت. ط الأولى 1409هـ 1989م.

18- البداية والنهاية ٣/ ٣٨.)

19-السيرة الحلبية 1: 272، والكامل لابن الأثير 2: 27.

وللاستزادة حول خطب النبي صلى الله عليه وسلم ينظر:

"البيان والتبيين 15/2، العقد الفريد 13/2، إعجاز القرآن 111، شرح ابن أبي الحديد 41/1، تاريخ الطبري 168/3، الكامل لابن الأثير 146/2، سيرة ابن هشام 390/2،و"تاريخ

الطبري 12/3، وإعجاز القرآن ص 112، والكامل لابن الأثير 121/2،وسيرة ابن هشام273/2،و"شرح بن الحديد 65/٣32،صبح الأعشى 213/1، وشرح ابن أبي الحديد م3، ص316.

20- الثعالبي، الاقتباس من القرآن الكريم ص109- 110 .أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي "350-429هـ" الاقتباس من القرآن الكريم جـ1 تحقيق ابتسام مرهون الصفار-1- الهيئة العامة لقصور الثقافة.

مراجع خطب الصّدّيق:

1 تاريخ الطبري جـ3 ص218.و2 سيرة ابن هشام جـ4 ص399. والبيان والتبيين جـ3 ص 297، وعيون الأخبار جـ2 ص233-234.

21- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي. 4/ 61 – 62. المكتب الإسلامي. بيروت. ط6، 1411 هـ 1991م.

22-محمود شاكر، التاريخ الإسلامي. 4/ 141-142.

23 التاريخ الإسلامي 4/ 170-171

24- أحمد محمد الحوفي، فن الخَطابة،دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،د.ط،د.ت. ص 213.

25-محمد أبو زهرة ،الخَطابة أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي،ط2، 1980، ص 299.

26-أحمد الحوفي، فن الخَطابة،. ص 214 وما بعدها باختصار وتصرف.

27- عبد الجليل عبده شلبي، الخَطابة وإعداد الخطيب،دار الشروق، القاهرة، مصر،ط1، 1981، ص 211.

28-راجع البيان والتبيين 1/ 98 – 101.

29-راجع أيضا البيان والتبيين 1/ 314 – 316.

30-البيان والتبيين 1/ 348.

31-سيرة عمر بن عبد العزيز، أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم. تحقيق أحمد عبيد ص 35 – 36، مكتبة وهبة القاهرة، ط الثانية

32-العقد الفريد 4/ 205- 206.

33- المعجم الوسيط 2/ 835.

34- القاموس المحيط ص 1363.

35- راجع: المعجم الوسيط 2/ 967.

36- المعجم الوسيط، 2/ 732 – 733 بتصرف.

37- المعجم الوسيط، 1/ 498.

38- المعجم الوسيط 2/ 967.

39- المعجم الوسيط، 1/ 414.

40-العقد الفريد 4/ 227- 228.

ينظر:د. إسماعيل علي محمد...بتصرف:تاريخ الإضافة 12/7/2016 :

الرابط https://www.alukah.net/literature_language/0/105307 :

وينظر: د. إسماعيل علي محمد... 24/7/2016 :

رابط الموضوع https://www.alukah.net/sharia/0/105851 :

المحاضرة الثالثة/ الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية والأدبية

تقديم:

لمّا اتّسعت الفتوح وتفرّق الولاة والعمّال (الوالي هو الحاكم السياسي الاداري؛ والعامل هو الموظف الذي يتولى جمع الضرائب والادارة المالية.)

في الاقطار احتاجت الدولة إلى أن تبلّغ أولئك الولاة والعمّال وغيرهم من أصحاب المناصب في الأمصار المختلفة أمورا تتعلّق بالسياسة أو الادارة فحدثت كتابة الرسائل.

ولم يكن للرسائل-في هذا الدّور-خصائص أدبية تميّزها، فلقد كانت الرسالة خطبة مدوّنة، أو كانت كلاما عاديا قيّد بالحروف من غير تنميق ولا التزام أسلوب خاصّ.

وكما كانت الخطابة من مستلزمات الإدارة، فقد كان الترسّل أو الكتابة حاجة إدارية، ولم تكن-في هذا العصر الذي نؤرّخه-فنّا مقصودا لذاته. والعرب عامة كانوا أقدر على الخطابة منهم على الكتابة. من أجل ذلك كانت الدولة تتخيّر كتّابا لها، من العرب حينا ومن غير العرب أحيانا، من ذوي العفّة والأمانة. وقد كان الخليفة يملي على هؤلاء الكتّاب ما يشاء أو يطلب منهم أن «يكتبوا» عنه ما يريد. ولقد كان الكاتب في أيام الخلفاء الراشدين شخصا يختاره الخليفة ويجعله في بطانته، أما في الدولة الأموية فقد أصبح للكتابة مناصب، ثم جعل لها ديوان خاصّ-إدارة خاصّة-منذ أيام معاوية ابن أبي سفيان على وجه التقريب، ومنذ أيام عبد الملك بن مروان على القطع.

ديوان الرسائل:

يشبه ديوان الرسائل رئاسة الوزارة في أيامنا، فرئيس الديوان-وكان يسمّى الكاتب- كان ينشئ الرسائل التي كان الخليفة يبعث بها إلى الولاة والعمّال وإلى الملوك الآخرين، كما كان يتلقّى الرسائل التي كانت ترد إلى الخليفة. وكان الكاتب في أول أمره موظّفا بسيطا لا تتعدّى وظيفته استملاء الرسائل. ثم تطوّرت الكتابة

باتّساع الحاجة اليها ونشأ ديوان الرسائل، إلى جانب غيره من الدواوين، وأصبح له رئيس كما أصبح فيه كتّاب مرؤوسون كل يعمل على مقدار منصبه في الديوان.

ثم تطوّرت الرسالة نفسها وأصبحت الكتابة، قبل أن ينقضي العصر الأمويّ صناعة ذات قواعد وأصول: أصبح للرسالة مطالع وفيها تحميدات تختلف باختلاف مقام الذين تصدر عنهم وتوجّه إليهم، ثم لها خواتيم تختلف أيضا بحسب ذلك. وكذلك حدث في متن الرسالة أشياء من السجع والموازنة ومن الترداد المقصود ومن التأنّق في التعابير والجمل. ثم طالت الرسائل أيضا. على أن الترسّل ظلّ في العصر الأمويّ- في الاكثرية -«فنّا رسميّا» يتعلّق بأمور الدولة.

وربّما استشهد الكتّاب في الرسائل بالشعر، إلاّ إذا كانت الرسالة موجّهة إلى الخليفة، فإن الشعر في رسالة موجّهة إلى الخليفة كان مكروها.

وكان في العصر الأمويّ رسائل لم تكن في شؤون سياسية رسميّة، بل في نصائح عامّة في الحرب مثلا كما في رسالة كتبها عبد الحميد الكاتب على لسان مروان الثاني إلى ابنه عبد الله(1)

كان عبد الله بن مروان وليّا للعهد ووالیا على الجزيرة. فلمّا خرج الضحّاك بن قيس الشيباني على الأمويّين (127-128 ه)أمر مروان الثاني ابنه عبد الله أن يحارب الضحّاك ثم بعث إليه برسالة يبسط له فيها أمور الحرب وآداب القائد مع رعيّته وقوّاد جيوشه.

ثمّ هنالك رسالة أخرى كتبها عبد الحميد الكاتب أيضا على لسان الخليفة يأمر فيها أحد الولاة بمنع الناس من اللّعب بالشطرنج لأن الناس كانوا قد أدمنوا اللعب به حتّى صرف بعضهم عن العبادة وعن الاهتمام بمصالحهم.

على أن مثل هذه الرسائل لا يمكن أن تعدّ إخوانية، لأنّها لا تزال تدور على أغراض هي من شأن الدولة، كما كانت لا تزال جارية على الأمر بشيء دون آخر، وعلى شيء من السلطة الرسمية للخليفة.

أما رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتّاب فيمكن أن تكون تمهيدا إلى الرسائل الإخوانية.

يبدو أن حاجة الدولة إلى الكتّاب المنشئين، في أعقاب الدولة الأموية، قد عظمت حتّى كانت الدولة تضطرّ إلى أن توظّف في ديوان الرسائل أشخاصا ليسوا على ثقافة وافية بصناعة الكتابة ولا بالمعارف التي تتطلّبها صناعة الكتابة. من أجل ذلك وجّه عبد الحميد بن يحيى (أو عبد الحميد الكاتب)، وهو رئيس ديوان الانشاء يومذاك، إلى الكتّاب الصغار أو الناشئين المستجدّين في خدمة الدولة رسالة يدلّهم فيها على أصول صناعة الكتابة وآدابها، كما يوصيهم فيها بأن يعرفوا حقّ الكتّاب الكبار (إذا عجز هؤلاء عن القيام بأمر معاشهم حينما يتقدّمون في السنّ) من الناحية المعنوية (بالاحترام الواجب) ومن الناحية المادية (بالمساعدة). ومع أن هذه الرسالة كانت موجّهة من رئيس إلى مرؤوسين (وربّما بإشارة من الخليفة نفسه)، فان غرضها الرئيسي كان تثقيفيّا. من هذه الناحية وحدها يجوز لنا أن نرى في هذه الرسالة بدءا للرسائل الاخوانية.

ثم كانت هنالك رسائل في العصر الأموي يمكن أن تكون إخوانية واضحة يتبادلها الولاة مع نفر من قادة الحركات المختلفة (كالحسن البصري رأس علماء الكلام وكقطري بن الفجاءة كبير الخوارج في أيامه) أو يتبادلها نفر من آل البيت المالك فيما بينهم، كما كان ثمت رسائل تدور بين نفر من كبار القوم. من ذلك مثلا رسالة كتب بها بشر بن مروان بن الحكم إلى أخيه عبد العزيز يعتذر فيها عن أمر كان قد بدر منه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: لو لا الهفوة لم أحتج إلى العذر، ولم يكن لك في قبوله منّي الفضل. ولو احتمل الكتاب أكثر ممّا ضمّنته لزدت فيه. وبقيا الاكابر على الاصاغر من شيم الاكارم. ولقد أحسن مسكين الدراميّ حين يقول:

أخاك أخاك، إنّ من لا أخا له... كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإنّ ابن عمّ المرء، فاعلم، جناحه...وهل ينهض البازي بغير جناح!»

ومثل ذلك ما كتب به عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض اخوانه يعاتبه:

«أمّا بعد، فقد عاقني الشّكّ في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، وذلك انّك ابتدأتني بلطف عن غير خبرة، ثمّ أعقبتني جفاء من غير جريرة. فأطمعني أوّلك في إخائك، وأيأسني آخرك من وفائك. فلا أنا في اليوم مجمع لك اطّراحا، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة. فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الشكّ في أمرك عن عزيمة الرأي فيك فاجتمعنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف، والسلام.»

الرسائل الأدبية:

وهي تلك الرَّسائِلُ يُرسِلُها أديبٌ إلى أديبٍ آخَرَ مُناقِشًا إيَّاه، أو متحَدِّثًا في قَضِيَّةٍ أَدَبِيَّةٍ، أو عن خِبرتِه في عَصرٍ مِنَ العُصورِ.

وتتَمَيَّزُ هذه الرِّسالةُ بروعةِ الألفاظِ وكَثرةِ الصُّوَرِ البَيانِيَّةِ، والإكثارِ مِنَ المحَسِّناتِ البَديعِيَّةِ اللَّفْظِيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ؛ إذ تُنبِئُ عن شَخصِيَّةِ أديبٍ كاتبٍ بليغٍ، ذلَّت له بَلاغةُ القَلَمِ، وانطَوَت جوانحُه على فَصاحةِ البَيانِ.

ومِن أمثِلةِ ذلك ما أفرَدَه الجاحِظُ في رَسائِلِه الأدبِيَّةِ، وكِتاباتُ ابنِ المقَفَّعِ، ورَسائِلُ مُصطفى صادِق الرَّافِعِيِّ؛ ففي جميعِها تتَّضِحُ ماهِيَّةُ الرِّسالةِ الأدبِيَّةِ ويُبِينُ عن مَكنونِها.

رِسالةُ الجاحِظِ:(ضمن الحصة التطبيقية)

ومِثالُ تلك الرَّسائِلِ ما كتبه الجاحِظُ في رسالةِ الحاسِدِ والمحسودِ:

وهَبَ اللهُ لك السَّلامةَ، وأدامَ لك الكَرامةَ، ورَزَقك الاستِقامةَ، ورفع عنك النَّدامةَ.

كتبْتَ إليَّ -أيَّدك اللهُ- تسألُني عن الحَسَدِ ما هو؟ ومِن أينَ هو؟ وما دليلُه وأفعالُه؟ وكيف تُعرَفُ أُمورُه وأحوالُه، وبمَ يُعرَفُ ظاهِرُه ومَكتومُه، وكيف يُعلَمُ مَجهولُه

ومَعْلومُه، ولِمَ صار في العُلَماءِ أكثَرَ منه في الجُهَلاءِ؟ ولِمَ كَثُرَ في الأقرباءِ وقَلَّ في البُعَداءِ؟ وكيف دَبَّ في الصَّالحينَ أكثَرَ منه في الفاسِقينَ؟ وكيف خُصَّ به الجيرانُ مِن بَيْنِ جميعِ أهْلِ الأوْطانِ؟

والحَسَدُ -أبقاك اللهُ- داءٌ يَنهَكُ الجَسَدَ، ويُفسِدُ الوُدَّ، عِلاجُه عَسِرٌ، وصاحِبُه ضَجِرٌ، وهو بابٌ غامِضٌ وأمرٌ مُتعَذِّرٌ، وما ظهر منه فلا يُداوى، وما بَطَن منه فمُداويه في غَناءٍ، ولذلك قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «دبَّ إليكم داءُ الأُمَمِ مِن قَبْلِكم: الحَسَدُ والبَغْضاءُ . «وقال بَعْضُ النَّاسِ لجُلَسائه: أيُّ النَّاسِ أقلُّ غَفلةً؟ فقال بعضُهم: صاحِبُ ليلٍ، إنَّما همُّه أن يُصبِحَ. فقال: إنَّه لكذا وليس كذا. وقال بعضُهم: المسافِرُ، إنَّما همُّه أن يَقطَعَ سَفَرَه. فقال: إنَّه لكذا وليس كذا. فقالوا له: فأخبِرْنا بأقلِّ النَّاسِ غَفلةً. فقال: الحاسِدُ، إنَّما همُّه أن يَنزِعَ اللهُ منك النِّعْمةَ الَّتي أعطاكها، فلا يَغفُلُ أبدًا.

ويُروى عن الحَسَنِ أنَّه قال: الحَسَدُ أسرَعُ في الدِّين مِنَ النَّارِ في الحَطَبِ اليابِسِ!

وما أُتِيَ المحسودُ مِن حاسِدِه إلَّا مِن قِبَلِ فَضلِ اللهِ عِندَه ونِعَمه عليه؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ :أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (النساء: 54).

والحَسَدُ عَقيدُ الكُفرِ، وحَليفُ الباطِلِ، وضِدُّ الحقِّ، وحَربُ البيانِ؛ فقد ذمَّ اللهُ أهلَ الكِتابِ به، فقال :وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ (البقرة: 109).

منه تتولَّدُ العَداوةُ، وهو سَبَبُ كُلِّ قَطيعةٍ، ومُنتَجُ كُلِّ وَحشةٍ، ومُفَرِّقُ كُلِّ جماعةٍ، وقاطِعُ كُلِّ رَحِمٍ بَيْنَ الأقرِباءِ، ومُحْدِثُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ القُرَناءِ، ومُلقِحُ الشَّرِّ بَيْنَ الخُلَطاءِ، يكمُنُ في الصَّدرِ كُمُونَ النَّارِ في الحَجَرِ.(2)

ولو لم يَدخُلْ على الحاسِدِ بَعْدَ تراكُمِ الغُمومِ على قَلْبِه، واستِكمانِ الحُزنِ في جَوفِه، وكَثرةِ مَضَضِه ووَسْواسِ ضَميرِه، وتنَغُّصِ عُمُرِه وكَدَرِ نَفْسِه وكَدِّ عَيْشِه، إلَّا استِصغارُه نِعمةَ اللهِ عليه، وسَخَطُه على سيِّده بما أفاد غَيرَه، وتمنِّيه عليه أن يرجِعَ في

هِبتِه إيَّاه، وألَّا يَرزُقَ أحَدًا سِواه- لكان عِنْدَ ذَوي العُقولِ مَرحومًا، وكان لديهم في القياسِ مَظلومًا. وقد قال بَعْضُ الأعرابِ: ما رأيتُ ظالِمًا أشبَهَ بمظلومٍ مِنَ الحُسَّادِ: نَفَسٌ دائِمٌ، وقَلبٌ هائِمٌ، وحُزنٌ لازِمٌ.

والحاسِدُ مَخذولٌ ومَوزورٌ، والمحسودُ محبوبٌ ومنصورٌ. والحاسِدُ مَغمومٌ ومَهجورٌ، والمحسودُ مَغْشِيٌّ ومَزُورٌ.

والحَسَدُ -رَحِمَكَ اللهُ- أوَّلُ خَطيئةٍ ظَهَرت في السَّمَواتِ، وأوَّلُ مَعصيةٍ حَدَثت في الأرضِ، خصَّ به أفضَلَ الملائكةِ فعصى ربَّه، وقايَسَه في خَلْقِه، واستكبَرَ عليه، فقال :خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (الأعراف: 12)، فلعنه وجعله إبليسًا،(لم يكُنْ إبليسُ مِنَ الملائكةِ أبدًا، بل هو مِنَ الجِنّ، بدليلِ قَولِه تعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ]الكهف: 50، وهو مخلوقٌ مِنَ النَّارِ، والملائكةُ مخلوقةٌ مِنَ النُّورِ، والملائكةُ لا يَعصونَ اللهَ ما أمرهم، وإنما دخل في الخِطابِ تَغليبًا؛ لأنَّه كان معهم في الجَنَّةِ حينَ أمَرَهم اللهُ تعالى بالسُّجودِ.(3) وأنزله من جوارِه بَعْدَ أن كان أنيسًا، وشوَّه خَلْقَه تَشويهًا، وموَّه على نبيِّه تمويهًا، نَسِيَ به عَزْمَ ربِّه، فواقع الخطيئةَ، فارتدَعَ المحسودُ وتاب عليه وهدى، ومضى اللَّعينُ الحاسِدُ في حَسَدِه فشَقِيَ وغَوى.

وأمَّا في الأرضِ فابنا آدَمَ، حَيثُ قتَلَ أحَدُهما أخاه، فعصى ربَّه وأثكَلَ أباه.

وبالحسَدِ طوَّعَت له نَفْسُه قَتْلَ أخيه، فقتَلَه فأصبح مِنَ الخاسِرينَ.

لقدْ حَمَله الحَسَدُ على غايةِ القَسْوةِ، وبلَغ به أقْصَى حُدودِ العُقوقِ، فأنْساه مِن رَحِمِه جميعَ الحُقوقِ، إذ ألْقَى الحَجَرَ عليه شادِخًا، وأصبَحَ عليه نادِمًا صارِخًا.

ومِن شأنِ الحاسِدِ إنْ كان المحسودُ غَنِيًّا أن يوبِّخَه على المالِ فيقولَ: جمَعَه حرامًا ومنَعَه أثامًا. وألَّب عليه محاويجَ أقاربِه فتركَهم له خُصَماءَ، وأعانهم في الباطِنِ، وحَمَل المحسودَ على قطيعتِهم في الظَّاهِرِ، وقال له: لقد كَفَروا مَعروفَك، وأظهَروا في النَّاسِ ذَمَّك، فليس أمْثالُهم يُوصَلون، فإنَّهم لا يَشكُرون. وإنْ وَجَد له خَصْمًا أعانَه عليه ظُلمًا، وإنْ كان ممَّن يُعاشِرُه فاستشارَه، غَشَّه، أو تفضَّل عليه بمَعروفٍ، كَفَره،

أو دعاه إلى نَصرٍ، خَذَله، وإن حَضَر مَدْحَه ذَمَّه، وإن سُئِل عنه همَزَه، وإن كانت عنده شَهادةٌ كتَمَها، وإن كانت منه إليه زَلَّةٌ عظَّمها، وقال: إنَّه يُحِبُّ أنْ يُعادَ ولا يَعودَ، ويَرى عليه العُقودَ.وإن كان المحسودُ عالِمًا قال: مُبتَدِعٌ، ولِرأيِه مُتَّبِعٌ، حاطِبُ لَيلٍ ومُبتغي نَيلٍ، لا يُدرى ما حَمَل، قد تَرَك العَمَل، وأقْبَلَ على الحِيَل. قدْ أقبَلَ بوُجوهِ النَّاسِ إليه، وما أحمَقَهم إذِ انثالوا عليه. فقبَّحه اللهُ من عالِمٍ ما أعظَمَ بَلِيَّتَه، وأقَلَّ رِعَتَه، وأسوأَ طُعْمَتَه!وإن كان الحَسودُ ذا دِينٍ قال: مُتَصَنِّعٌ يَغزو ليُوصَى إليه، ويَحُجُّ ليُثْنَى بشَيءٍ عليه، ويَصومُ لتُقبَلَ شَهادتُه، ويُظهِرُ النُّسُكَ ليُودَعَ المالُ بَيْتَه، ويَقرأُ في المسجِدِ ليزوِّجَه جارُه ابنَتَه، ويحضُرُ الجنائِزَ لتُعرَفَ شُهرتُه.وما لَقِيتُ حاسِدًا قطُّ إلَّا تبيَّنَ لك مَكنونُه بتَغيُّرِ لَونِه وتخوُّصِ عَينِه وإخفاءِ سَلامِه، والإقبالِ على غَيرِك والإعراضِ عنك، والاستِثْقالِ لحديثِك، والخِلافِ لرأيِك... وما أرى السَّلامةَ إلَّا في قَطْعِ الحاسِدِ، ولا السُّرورَ إلَّا في افتِقادِ وَجْهِه، ولا الرَّاحةَ إلَّا في صَرمِ مُداراتِه، ولا الرِّبحَ إلَّا في تَرْكِ مُصافاتِه. فإذا فعَلْتَ ذلك فكُلْ هَنيًّا مَرِيًّا، ونَمْ رَضِيًّا، وعِشْ في السُّرورِ مَلِيًّا. ونحن نسألُ اللهَ الجليلَ أن يُصَفِّيَ كَدَرَ قُلوبِنا، ويجنِّبَنا وإيَّاك دَناءةَ الأخلاقِ، ويَرزُقَنا وإيَّاكَ حُسْنَ الأُلفةِ والاتِّفاقِ، ويُحسِنَ توفيقَك وتَسديدَك. والسَّلامُ(4)

الهوامش:

1-أبو العباس أحمد القلقشندي،صبح الأعشى في كتابة الإنشا،دار الكتب المصرية، القاهرة،د.ط، 1922، 1:195-233؛ رسائل البلغاء (الطبعة الثانية)149-164.عمر فروخ...تاريخ الأدب العربي،ج1، ص374-377.

2-أخرجه أحمد في مسنده: رقم الحديث(1412) من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

3- يُنظر: تفسير الزمخشري: (3/ 91)،وتفسير ابن كثير: (3/ 298).

4-يُنظر: (الرسائل الأدبية) للجاحظ (ص: 115).

المحاضرة الرابعة/ فنون الســـرد العـــربي القـــديم
المقامـــة

نشأة المقامات :

لم يكن العرب منذ أقد العصور إلا كغيرهم من الأمم يرددون الحكايات ويتمتعون في مجالسهم بسماعها ولا شك أن القصص تصور العادات والتقاليد والآراء والمعتقدات الذين يقصون تلك القصص أو الذين يحكونها ناهيك عما يعتريها من دقائق خاصة قلما توجد في باقي الأنواع الأدبية

ظهر في القرن الرابع الهجري نوع أدبي جديد يدعي المقامات لم يكن القول أن جوهرها تلك القصص أو الحكايات إلا أن مبدعيها تعمدوا التصنيع والتأنق بها وهذه المقامات تضم الحكايات والنوادر والمطيبات بينما لا تخلو من جوانب تاريخية وحكمية وأدبية.

وللمقامة عدة تعريفات نستعرضها:

المقامات لغة: هي المجلس، والمقامة في الأدب: هي قصة تدور حوادثها في مجلس واحد(1)

و تعرف المقامة بأنها القصة أو الحكاية وتعد من أقدم الأنواع الأدبية التي ربما سبقت الشعر وتحتل مكانا واسعا بين آداب الشعوب.

و يعرف القلقشندى المقامة: بأنها في الأصل اسم المجلس والجماعة من الناس وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة، لأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيها الجماعة من الناس لسماعها (2)

تعريف المقامة اصطلاحا: تدل كلمة مقامة واحدة المقامات في الاستعمال العربي القديم على موضع القيام فهي (مَفْعَلة) من القيام يقال مقال مقام ومقامة كمكان ومكانة وهما في الأصل اسمان لموضع القيام وتوسع العرب في استعمال كلمة مقامة حتى استعملت استعمال المكان والمجلس(3)

و تعد المقامات إحدى الفنون النثرية التي يبالغ فيها الاهتمام باللفظ والأناقة اللغوية وحمل الأسلوب بحيث تتعدى الشعر في احتوائها على المحسنات اللفظية إلا أنها لم تحظى باهتمام الأدباء والنقاد وهذا لا يعنى أنهم أهملوا هذا الفن كليا بل المقصود هو أن النثر بشكل عام والمقامات على وجه الخ(4)

وفن المقامات فن اشتهر به الأدباء العرب قديما ولكن لم يبقى هذا الفن لزمن طويل ويعتبر هذا الفن موسيقى العرب الكلاسيكية ويقترن بالغوص في عالم المقامات الشرقية وفي سلالمها الساحرة من خلال لحظات موسيقية يستخرج فيها الفنان ثمار إبداعه ملتزما بالأداء الفردي مرتجلا ذروة انفعاله الشعوري والنغمي باحثا عن روح المقام مثيرا في وجدان المستمع نشوة الطرب.

عناصر المقامة الأدبية:

1 - الراوي: ينقلها عن مجلس تحدث فيه.

2 - المكدي (البطل) : تدور القصة حوله وتنتهي بانتصاره في كل مرة.

3 - العقدة (نكتة) : تحاك حولها المقامة وقد تكون هذه العقدة بعيدة عن الأخلاق الكريمة وأحيانا تكون سمحة.

وتبنى المقامة على الإغراق في الصناعة اللفظية خاصة والصناعة المعنوية عامة والمقامة الفنية أو البديعية، كما اجمع النقاد على تعريفها اقرب ما تكون لقصة قصيرة مسجوعة بطلها نموذج إنساني مكد ومتسول والمقامة راو وبطل وهي تقوم على حدث طريف مغزاه مفارقة أدبية أو مسألة دينية أو مغامرة مضحكة تحمل في داخلها لونا من ألوان النقد أو الثورة أو السخرية وضعت في إطار من الصنعة اللفظية والبلاغية(5) وبالرغم من التسول من أهم الموضوعات المقامة إلا أنها ليست الموضوع الرئيسي لها وأن كانت صنعة ملازمة للبطل فقد عالجت المقامة

موضوعات شتى مثل النقد بأنواعه المختلفة الأدبي والمذهبي والاجتماعي وفيها التعليم اللغوي والأسلوبي والإرشاد والحيلة والأدب والألغاز (6)

و تنبع أهمية فن المقامة في مجال الأدب المقارن فقد قلدها بعض الكتاب الفرس كما يعتقد أنها أسهمت في ظهور روية المكديين التي ظهرت في اسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي ثم شاعت في أوروبا لتصبح مقدمة لظهور الرواية النثرية.

أشهر رواد المقامات:

لا اختلاف على نشأت المقامات الأدبية أنها مشرقية أما الذي لا اتفاق عليه فهو زمن هذه النشأة وصاحب الفضل فيها، فمهما يكن من شأن الاختلاف حول منشأ المقامات فإنه يدور حول ثلاثة أسماء كبيرة في تاريخ تراثنا الأدبي والفكري عاش أصحابها بين القرنيين الثالث والرابع الهجري وهم بديع الزمان الهمذاني وابن دريد وابن فارس(7)

كان بديع الزمان الهمذاني (357هـ - 398هـ) هـ، وأبو القاسم الحريري (446هـ - 515هـ) من أبرز كتاب المقامات في العصر العباسي ونتناول السطور القادمة أهم السمات الأدبية لدى الأديبين:

لقد كان بديع الزمان أول من أطلق اسم المقامات على العمل الأدبي من إنشائه وقد لاقت مقاماته قبولا في نفوس معاصريه، وأظهر قول القلقشندي(8)

(واعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر وإمام الأدب البديع الهمذاني) .

1 - بديع الزمان الهمذاني:

تتميز مقامات البديع بأنها قصيرة على الأغلب وفيها من الفصاحة والسهولة والوضوح إلى جانب الدعابة والمرح والتهكم وبديع الزمان حسن الابتكار قل أن تجد له مقامتين في معنى واحد وهو يجيد في مقاماته السرد والوصف الحسي والتحليل ويحسن دراسة الطبائع وتصوير المعائب وعرض مساوئ المجتمع غير انه لا يقصد إلى إصلاح هذه المساوئ ينصح أو يردع وإنما غايته التهكم بأصحابها واظراف الآخرين بتصويرها واستعراضها وهو كثير الاحتقار للناس (الهمذاني، مقامات بديع الزمان الهمذاني)

و أسلوب بديع الزمان في مقاماته خاصة حلو الألفاظ سائغ التركيب جميل الوصف كثير الصناعة المعنوية (الاستعارات والكنايات والتوريات الخاصة) من غير تكلف ولا إغراق في السجع.

و المقامات الخمسين التي بدأ بديع الزمان كتابتها منذ عام 375 هـ راوٍ واحد هو عيسى بن هشام وبطل واحد هو أبو الفتح الاسكندري نسبة إلى الإسكندرية التي هي قرب الكوفة على الفرات وهما شخصيتان تاريخيتان، ومن أشهر مقاماته هما: المقامة المضرية والمقامة البشرية.

أما المقامة المضرية فتظهر فيها براعة البديع في الوصف ودقة التصوير على شيء كثير من السخرية وخفة الروح أما المقامة البشرية فهي وفق بها بديع الزمان الاختراع شاعر جاهلي تبناه التاريخ من بعده الا وهو بشر بن عوانة العبدي(9)

إن أول من قام بصياغة هذا النوع الأدبي هو بديع الزمان الهمذاني وهو مبدع المقامات(10)

غير إن هناك تباين في الآراء بين النقاد والباحثين في اعتبار الهمذاني مبدع لهذا الفن الأصيل بحيث يعتقد جرجي زيدان إن بديع الزمان اقتبس أسلوب مقاماته من رسائل إمام اللغويين أبي الحسين احمد بن فارس (ت390هـ) .

بينما يعتبر الدكتور زكي مبارك مقامات الهمذاني مشتقة من أحاديث بن دريد (ت321هـ) هـ ويرى بين مقامات الهمذاني وأحاديث بن دريد مشابهات قوية من حيث الحبكة القصصية واستخدام السجع به.

و ليس هناك أثر عن العرب مقامات سابقة على مقامات الهمذاني فهو من اجل ذلك يعتبر مبدع هذا الفن ولكن هناك من الأدباء كابن عبدربه وابن قتيبة والحصري يفضلون ان يقولوا إن بديع الزمان اشتق فن المقامات من فن قصصي سابق.

و يرى **زكي مبارك:** أن يثبت أن مقامات بديع الزمان مشتقة من أحاديث ابن دريد وأن ابن دريد هذا كان راويا وعالما ولغويا وقد عنا برواية أحاديث من الأغراب وأهل الحضر (11)

و لا ريب في أن بين أحاديث ابن دريد وبين المقامات شبها قويا من حيث القصص واستخدام السجع ولكن هناك أيضا فروقا كبيرة في الصناعة وفي العقدة وفي وجود بطل المقامات وهو المكدي وفي بناء المقامة على الكدية وعلى الهزأ من عقول الجماعات مع إظهار المقدرة في فنون العلم والأدب آلة ما هنالك من خصائص يتميز يها فن المقامات.

فهذا لا يعني أن بديع الزمان لم يطلع على أحاديث ابن دريد أو على ما روي من قصص وأحاديث ولكن الفرق بين ما روي عن العرب من أحاديث وبين المقامات من حيث الغاية والأسلوب كبير جدا.

و على كل فإن بديع الزمان لم يكن مبدع فن المقامات فإن مقاماته أقدم ما وصل إلينا من هذا الفن الأدبي الرائع ثم تبعه عدد كبير من الكتاب القدامى والمحدثين فكتبوا في هذا الفن من أبرزهم الزمخشري وجلال الدين السيوطي عن المشارقة والسرقسطي من الاندلسي اما المحدثين فأهمهم اليازجي والمويلحي.

فالغرض من المقامة هو التعليم ولهذا سماها بديع الزمان مقامة وليست قصة أو حكاية أما بعض الباحثين يرى أنها نوع من القصص إلا أنها ليست قصة بالمعنى الكامل إلا أنها تشتمل على عناصر قصصية من حيث الحوار والمضمون والتصوير لعناصر الشر والفساد وبالإضافة إلى احتوائها على كلمات لغوية جعلت من المقامة تتجه نحو البلاغة اللفظية إذ أن القصة ليست الأساس وإنما الأساس هو العرض الخارجي والحلية اللفظية لذا فإن بعض الأدباء اخذوا يبتكرون صورا جديدة للتعبير ولكن في حدود وغالبا ما تتصف المقامة بالشحاذة والكدية.

و في الآداب العالمية نجد المقامة مثل مقامة القاضي حميد الدين أبو بكر البلخي باللغة الفارسية وفي أوروبا وجود قصص ممثلات لبعض القصص الاسبانية بطلا واحدا

اسمه بيكارون وهو يشبه من بعض الوجود أبو الفتح الاسكندري عند بديع الزمان وأبو زيد السروجي عند الحريري(12)

2 - أبو القاسم الحريري:

يبدأ الحريري مقاماته بإسناد الكلام إلى روايتها الحرث بن همام ولكنه لا يقتصر كالبديع على قوله حدثنا بل يميل إلى التغيير في بدأ كل مقامه فينتقل بين حدث وروى وحكى وأخبر وقال وكان مكدي بطل مقاماته هو أبو زيد السروجي والحريري في مقاماته أكثر تعلقا بالحواضر من بديع الزمان فما يكاد يخرج إلى البادية إلا في واحدة منها أو اثنين ومقاماته في الغالب أطول من مقامات أستاذه بيد أن طولها لا يعود على اتساع الفن القصصي فيها وإنما على اجتماع خبرين في مقامة واحدة أو على فيض الألفاظ وكثرة المترادفات ومعاقبة الجمل على المعاني أو على الإكثار من الشعر وفيه القصائد التي يشرح بها أو يزيد أحواله ويقص إخباره وللحريري لغة متينة قصيرة الجمل يقطعها تقطيعا موسيقيا فما تتعدى جملته الكلمتين أو الثلاثة فلما زادت بلغت الخمس أو الست وهو في إنشائه بادئ الصنعة ظاهر التكلف يتعمد الغريب ويسرف في استعماله ويفرط في اصطناع المجاز والتزيين حتى تجف عبارته ويمل ماؤها ويعبر مساغها , ومن أراء العلماء أيضا:

يقول بروكلمان في تاريخ الأدب العربي: (13)

"هذه المقامات آخر ما تفتق عنه العقل العربي، فهي شيء يبهر العيون ويسحر العقول لحظة كالألعاب النارية الجميلة، غير أنها عقيمة عديمة الجدوى كتلك الألعاب سواء بسواء" .

يقول نكلسن: حينما وصف مقامات الحريري قائلا:(14) "ولا يمكن للأوروبيين ألا يروا القليل من المزايا أو الذوق في الصور اللفظية كالتورية، والتقفية والجناس في أول الكلمة تلك التي رصعت بها صفحات (المقامات) ترصيعا كثيفا .... ولكن عدم اصطبارنا على مثل هذه الأشياء يجب ألا يعمى بصائرنا عن حقيقة أنها متصلة اتصالا وثيقا بعبقرية اللسان العربي وتقاليده".

ومن أشهر مؤلفات الحريري:

صحيح أن الحريري اشتهر في عالم الأدب بمقامته ولكنه صاحب تأليف كثير منها:

- درّة الغواص في أوهام الخواص
- ملحة الأعراب في النحو
- توشيح البيان
- الرسالة السينية الفرق بين الضاد والظاء
- صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور
- الخمسون مقامة التي عملها في بضع سنين

و تأتي أهمية مقامات الحريري أن تلك المقامات تعد غرضا أخلاقيا حيث يصرح إن الجاهل والشرير ربما يلعنان الكتابة ولكن القراء الفطينين يدركون إذا ما وضعوا التحيز جانبا انه نافعا ومفيد كأساطير الحيوانات.

لقد تكاثرت الشروح لأرباب العقول وتسابقت الأدباء الفحول في بيان مقاصد المقامات فنذكر منهم: المطردي، العكبري، الشريشي، الطرائفي، الزبيدي، الطبلي، الناصري، الباجي، الأنباري، الصقلي وعبداللطيف البغدادي، البيضاوي والرازي، خير الدنيا السياس المدني، السجماس، القزويني، الشافعي المراد آبادي.

حيث ترجمت المقامات لأهميتها الأدبية وصناعتها البلاغية ومواضيعها الإرشادية وقيمتها الفنية ترجمت المقامات إلى اللغات الحية في العالم منها الانجليزية واللاتينية والفارسية والتركية والعبرانية .(15)

وتعد مقامات الحريري آية الفن والأدب وآية الإبداع والسحر في الكلام انه معجزة لعصره والعصور التالية وذلك ليس إلا انه تلميذ من تلامذة القران العظيم يجول في ربوعه حيث شاء يشرب من معينه ويأكل من ثمراته تجري الحكمة من لسانه فأثره باق ما بقي الدهر لم تندرس معالمه على مر الأعوام فهو آية في كل شيء آية في النبوغ والذكاء والفطنة أديب يصوغ الكلام ذهبا ويرصعه بالقران جوهرا بالأمثال والحكم.

إن السجع في المقامات يعطيها متعة بالقراءة وتبعد القارئ عن الملل واشتهر بهذا السجع في أيامنا الشيخ عائض القرني حفظه الله فلا تخلو محاضرة من محاضراته من مقامات أدبية قد تأثر في فن المقامات تأثرا كبيرا فيأت أسلوبا مميزا له في محاضراته وندواته وله كتاب كامل في فن المقامات سماه المقامات شمل كثير من المواضيع الإيمانية والدعوية والعقائدية والعملية في صورة مقامات جميلة وبليغة فكان عمل أدبي بصيغة إسلامية مميزة.

مقامات بديع الزمان الهمذاني(حصة تطبيقية):

موضوع مقامات الهمذاني :

تدور مقامات "الهمذاني" في معظمها حول موضوع الكُدية أي الاستعطاء، كمعنى أول، والتلطف في سؤال الناس من خلال خطاي لغوي مثير كمعنى ثانٍ.

إن هذا الموضوع - بما إنه ليس بطولياً ولا نخبوياً - يعني النزول إلى الشوارع واكتشاف المفارقة بين المستويات والطبقات.

المستعطي كونه في أسفل السلم الاجتماعي هو الأقدر على رؤية مجتمعه واكتشاف ضعفه ونفاقه.

وهكذا فإن البطل الرئيس في مقامات "بديع الزمان" الذي اتخذ الكُدية وسيلة لكسب المال مضطر أن يدخل من فجوات العيوب التي يتميز بها المجتمع الطبقي المتمايز الذي عاش فيه "الهمذاني" نفسه.

ولهذا، فإنني أعتقد أن موضوع الكُدية كموضوع رئيس لهذه المقامات يصبح وسيلة لا هدفاً، وسيلة للكشف والغوص والتعرف والفهم، ومن ثم النقد والتوجيه وحتى السخرية - وهي ليست فكاهة كما يشير كثير من المباحث -.

إلا أن هذه الوسيلة - أقصد الكُدية - استأثرت باهتمام "بديع الزمان" ، فتحدث عن طرقها وعن التفنن في كسب المال، فكانت كالآتي:

- عن طريق البراعة اللغوية، كما في المقامتين الأزاذية والأذربيجانية.

- عن طريق الزيارة ليلاً لأن الناس أكثر كرماً في الليل، كما في المقامة الكوفية.
- عن طريق ادعاء العمى، كما في المقامة المكفوفية.
- عن طريق ادعاء بعض المهن، كما في المقامة القِردية.
- أساليب مختلفة ومتنوعة، كادعاء الفقر وتبدل الحال، كما في المقامة الساسانية.

وتقدم لنا مقامات "الهمذاني" صورة حية عن مجتمعها الذي نبتت فيه، فكان خير معبر عن ذلك العصر الذي اضطربت فيه الأخلاق والسلوك والدول والأفراد والجماعات، إذ تقدم هذه المقامات صورة بانورامية لمجتمع فيه كل المتناقضات كما يأتي:

- مقاطع من حياة المجون والسكر والعربدة، كما في المقلمة الخمرية.
- صورة لمحدثي النعمة، والانتهازيين، كما في المقامة المضيرية.
- صورة شاملة ومرعبة لفساد القضاء والقضاة، كما في المقامة النيسابورية.

إلا أن "الهمذاني" يخرج من هذه المواضيع كلها ليدخل في مواضيع أخرى كانت بالنسبة إليه مهمة، فرضتها ظروف حياته، من جهة، وظروف كونه كاتباً ومثقفاً ومناظراً وعالماً، من جهة أخرى، لهذا كانت هناك موضوعات أخرى فرضت نفسها في تلك المقامات كانت على النحو التالي:

1 - المديح:

إذ إن "الهمذاني" ولأسباب حياتية - بما عرف عنه من تنقل وترحال بين الدول - كتب ست مقامات في مديح "خلف بن أحمد" ، والي سجستان التي أمضى فيها حوال سنتين من عمره، وفي هذه المقامات الست بالغ وأطنب في ذكر محاسن هذا الرجل، ففي المقامة الملوكية، يتجاوز "الهمذاني" كل الملوك السابقين ليصل إلى القول عنه: "الذهب أيسر ما يهب، والألِفُ لا يعمه إلا الخلّف، وهذا جبل الكحل قد أضر به الميل، فكيف لا يُؤثِّر ذلك العطاء الجزيل ..." (16) وتعلق الدكتورة "أحلام الزعيم" على هذا القول بأن النثر في القرن الرابع الهجري صار يزاحم الشعر في كيل المديح ونظمه، وأن ذلك آذن "بانهدام الحواجز بين الشعر والنثر" (17)

2 – نقد وتحليل:

ففي أربع مقامات

هي: "الشِّعرية" و "العراقية" و "القريضية" و "الجاحظية" يتحول "الهمذاني" إلى ناقد أدبي يوزع أحكامه ويطلق سهامه على الشعراء والكتّاب على حد سواء، وقد أثبت في ذلك أنه صاحب ذائقة رفيعة، فقد أطلق أحكاماًُ بدت نهائية غير قابلة للنقاش على "امرئ القيس" ، و "الفرزدق" ، و "الأخطل" ، وغيرهم، وكذلك كان يسأل أسئلة مفاجئة يجيب عنها إجابات ذكية ولمّاحة أيضاً (18)

وفي المقامة الجاحظية، نرى "الهمذاني" ينتقد الجاحظ لخلو نثره من السجع ولعدم قوله الشعر، وهو نقد متسرع وفيه تجنٍّ.

3 - الوعظ والدعوة إلى الزهد:

وقد ورد هذا في مقامتين هما: الوعظية والأهوازية، وفيهما دعوة إلى التأمل والتزهد والتقشف والاستعداد لليوم الآخر.

4 - تحقير مذاهب بعينها:

ففي المقامة المارستانية يحقر "الهمذاني" مذهب المعتزلة، ويعتبر أتباعَ هذا المذهب مجوس هذه الأمة.

5 - مواضيع متنوعة كانت كالآتي:

- التخيل: كما في المقامة الإبليسية، إذ يظهر إبليس ل "أبي الفتح الإسكندري" ، ويعتقد الدكتور "شوقي ضيف" أن هذه المقامة هي التي أوحت لأدباء آخرين جاؤوا بعد "الهمذاني" بإنشاء روائع تنحو هذا المنحى . (19) وقصد: ابن شهيد في كتابه "التوابع والزوابع:، وأبا العلاء المعري في" رسالة الغفران)

- الشبقية: كما في المقامتين الشامية والرُّصافية، وفيهما تظهر ميول شبقية ومظاهر جنسية كانت معهودة في العصر.

- الوصف المجرد: وهذا كان من أهداف مقامات "بديع الزمان" لتظهر من خلاله قوة الكاتب في الرصف والمعمار، من جهة، وجمع الكلمات ومرادفاتها، من جهة أخرى، كما في المقامة الحَمْدانية.

ويرى "وهيب طنوس" أن الوصف من الفنون المقصودة في مقامات "البديع" ، وهذا ما نلاحظه في (الأَسَدية) ، والقصة هنا في جملتها فكاهة، لكن الوصف ظاهر فيها وبيِّن، وفيها فقرات وصف رائعة، والحركة فيها قوية، والمناظر تتوارد في حياة وانسجام، أما غرضها ففيه تفاهة، فكأن "بديع الزمان" لا يقصد غير هذه الأوصاف. أما (المقامة الخمرية) فقد وضعت قصداً لوصف الصهباء(20)

- الحض على العلم والتعليم، كما في المقامة العِلْمية: الشخصية الرئيسية في مقامات "الهمذاني" هي "أبو الفتح الأسكندري" التي عرفها الدكتور "يوسف عوض" بأنها "شخصية فنية استجمع مؤلفها أبعادها من واقع بيئته، وعلى وجه التحديد استخراجها من بين المتسولين والمُكْدين، وقد أضفى عليها عناصر فنية أخرى، حتى جعل منها نموذجاً لهذا النوع من المتسولين في بيئته" ، (21) هذه الشخصية لم تظهر في المقامة البغدادية والنهيدية والتميمية والبِشْرية والمِغْزَلية والغَيْلانية، كما أن هناك مقامات لم يكْدُ فيها "أبو الفتح" ، وهي: الوعظية والمضيرية والرُّصافية والشيرازية والنيسابورية والأهوازية والملوكية والخمرية والمارستانية والعِلْمية والحُلْوانية والمجاعية والخَلَفِية والبصرية والوصية والسارية. لكن "بديع الزمان" ، وعلى رغم ذلك، لم يتخلَّ عن استعمال الحيلة فيها أيضاً.

تحليل لنماذج من مقامات الهمذاني:

نقدم فيما يلي تحليلاً لنماذج عدة من الألوان البديعية والبيانية التي تسود مقامات "الهمذاني" وتطل علينا من كل سطر أو عبارة، لكننا لم نقدم دراسة إحصائية استقرائية، خصوصاً أن هذه الألوان قد تتداخل بصورة تؤدي إلى التعقيد، ومن الصعب الفصل بينها، لأن ذلك يفسد معناها

وجوهرها، ومثل ذلك قول "البديع" في المقامة البخارية: "طلع إلينا ذو طِمْرَين، قد أرسل صِواناً، واستثلى طفلاً عُرياناً، يضيق بالضُّرّ وُسْعُه، ويأخذه القُرُّ ويدعه، لا يملك غبر القشرة بُردة، ولا يكتفي لحماية رعدة"(22)

ففي عبارة "يضيق بالضر وسعه" ، أي طاقته تضيق عن احتمال ما به من الضر، نجد الكناية، والاستعارة في آن واحد، وفي عبارة "يأخذه القر ويدعه" طباق واضح، وفي الوقت نفسه صورة من صور الكناية، وفي عبارة "لا يملك غير القشرة بُردة ولا يكتفي لحماية رعدة" جناس بين بردة ورعدة، وفيها أيضاً كناية عن الفقر والحاجة، كما نجد السجع، والازدواج. وهكذا تتداخل الألوان البديعية والبيانية بصورة مكثفة، ويحتاج فرزها إلى عشرات الصفحات بل المئات.

وفي هذا المبحث نحدق بنص المقامات، ونُقلِّب الجمل والمفردات لفحص أين ذهب "الهمذاني" إلى فطرته ووجدانه وكان صاحب صنعة مجيداً، وأين لوي عنق الكلام ليتصنع ويتكلف.

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات السابقة عن مقامات "بديع الزمان" وقفت عند الجانب الخارجي للمقامة، دون الغوص إلى أعماقها، فيما لم تقف أي دراسة وقفة متأنية عند الصنعة والتصنع في مقاماته ذاتها.

المصادر والمراجع:

1 - أحلام الزعيم، قراءات في الأدب العباسي في الحركة النثرية، دار العودة - بيروت، 1981 م.

2 - بطرس البستاني، أدباء العرب، ج 2، دار مارون عبود - بيروت، 1979 م.

3 - بديع الزمان الهمذاني، شرح مقامات الهمذاني، دار التراث - بيروت، 1968.

4 - بديع الزمان الهمذاني، مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني: شرح محمد عبده، المطبعة الكاثوليكية - بيروت، 1889 م.

5 - حسن عباس، نشأة المقامات في الأدب العربي، دار المعارف - القاهرة، 1990 م.

6 - زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، دار الكتب المصري - القاهرة، 1934

7 - عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 5، دار العلم للملايين - لبنان، 1965 م.
8 - نكلس، تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة - القاهرة، 1989 م.
9 - وهيب طنوس، في النثر العباسي، منشورات جامعة حلب - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط 3، 1989 - 1990،
10 - يوسف نور عوض، فن المقامات بين المشرق والمغرب، دار العلم - بيروت، 1979 م.
11 - محمد محيي الدين عبد الحميد، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، مكتبة محمد علي صبيح - القاهرة، 1962 م.
12 - الموقع الالكتروني: www.asuclub.net.com

الهوامش:

1- البستاني، أدباء العرب، ج 2، ص 389.
2-حسن عباس، نشأة المقامات في الأدب العربي .
3-حسن عباس، نشأة المقامات في الأدب العربي .
4-البستاني، أدباء العرب، ج 2، ص 389 .
5- فن المقامات، www.asuclubinet.com .
6- فن المقامات، www.asuclubinet.com .
7-حسن عباس، نشأة المقامات في الأدب العربي .
8-حسن عباس، نشأة المقامات في الأدب العربي
9- البستاني، أدباء العرب، ج 2، ص 390 - 394 .
10-البستاني، أدباء العرب، ج 2، ص 389.
11-البستاني، أدباء العرب، ص 197 .
12-البستاني، أدباء العرب، ج 2، ص 428.
13-عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ج 5، ص 144 .
14-عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص 123.
15-حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص 747.
16-محمد عبده، مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها، المقامة الملوكية، ص 236 – 237.

17- أحلام الزعيم، قراءات في الأدب العباسي في الحركة النثرية، ص 44.
18-زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ج 1، ص 265 - 269.
19- شوقي ضيف، المقامة، ص 30 - 32،
20-وهيب طنوس، في النثر العباسي، منشورات جامعة حلب - كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط 3، 1989 - 1990، ص 315 .
21-يوسف نور عوض، فن المقامات بين المشرق والمغرب، ص 56.
22-محمد محيي الدين عبد الحميد، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، ص 95.

المحاضرة الخامسة/ أدب الرحلات

تقديم:

الرحلة صنف أدبي يبين أحوال الأقوام أو الناس من حيث التاريخ والجغرافية والحضارة والسياسة والاقتصاد والثقافة، ويعرض لنا المدنية والثقافات الحديثة ونشاهد ثقافة وحضارة ومدنية قوم ما والمعلومات عن أفكارهم وأخلاقهم ومعيشتهم ومعاشرتهم فيما بينهم، وفي الوقت الّذي لم تكن أدوات الاتصالات الحديثة كانت الرحلات مصدراً مهما وأساسيا لحصول المعلومات.

تعد كتب الرحلات من مصادر التاريخ والآثار والمجتمع التي تضيف الكثير من المعلومات والأحداث، وتقدم وصفاً للأماكن والشخصيات، وهي انطباعات شخصية وواقعية عن الجوانب الاجتماعية والحضارية للمناطق التي تشملها وهي تشكّل مادة غنية للجغرافيين والمؤرخين وكذلك لعلماء الاجتماع والاقتصاديين ودارسي الأدب وغيرهم.

وعلى المستوى الفني فإنّ "أدب الرحلة" يمثل لوناً أدبياً يجمع بعض خصائص القصة والرواية والسيرة الذاتية ويفيد من أدوات فنية مهمة كالصورة، والقصة، مما يجعله ميداناً فنياً، ويتيح له ذلك إيصال رسائله الفكرية، والفنية على اختلافها وتنوعها.(1)

وفي هذا البحث الموجز حاولت أن أعرف أدب الرحلة لغة واصطلاحا، وأهمية أدب الرحلة ودواعى الرحلة، وأسلوبها ومكوناتها، وخصائصها وتطورها، وأخيرا ختمت البحث بنتائج مهمة.

تعريف أدب الرحلة:

الرحلة لغة" :رحَلَ يَرحَل، رَحيلاً وتَرْحالاً ورِحْلَةً.

الرُّحال: العرب الرُّحال: الّذين لا يستقرون في مكان ويحلون بماشيتهم حيث يسقط الغيث، وينبت المرعى(2).

و" الرِّحْلَةُ بالضَّمِّ والكسرِ يُقالُ: إنَّهُ لَذُو رِحْلَةٍ إلى المُلوكِ ورُحْلَةٍ حَكاهُ اللِّحْيانِيُّ أي ارْتِحالٍ. والرِّحْلَةُ بالكسرِ: الارْتِحالُ لِلْمَسِيرِ(3).

ويقول ابن منظور في لسان العرب: "الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال بمعنى الإشخاص والإزعاج، يقال رحل الرجل إذا سار(4)

إصطلاحاً " :أدب الرحلات، مجموعة الأثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق.(5)

ويقول تعريف أخر: "أدب الرحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهى الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفاً له، ويسجل فيه مشاهداته، وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير.(6)

وعرف في الموسوعة العربية العالمية: "بأنّ أدب الرحلة هو الذى يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من امور في لأثناء رحلة قام بها لأحد البلاد(7)

أهمية الرحلات:

الإنسان منذ بدايته يحاول أن يكشف أسرار الأرض ويتعرف على رموزها. فيحب الحركة والتنقل ولا يجلس ولا يعيش على مكان واحد. يبحث عن طعامه وشرابه ويحفظ نفسه عن معاناة الحياة ويحب أن يعيش حياة سعيدة. والرحلات منابع ثرية لمختلف العلوم. وهى بشكل عام سجل حقيقى لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور. فالرحالة يطوى الأرض خلال رحلته ويسجل ملاحظته ومظاهر مختلفة في الحياة لما يشاهدها أو يسمعها ويصفها في رحلته. ولا شك أن الرحالين قد يختلفون فيما بينهم في دقة ملاحظتهم وفي درجة اهتمامهم حسب قدرتهم وذوقهم وثقافتهم الأدبية، كما يختلفون أيضا في درجة صدقهم وأمانتهم حسب فهمهم للأمور تحت الظروف المختلفة ألتي يخضعون لها.(8)

"والرحلات مصدر خصب للجغرافي والمؤرخ وعالم الاجتماع وفيها عبرة وعظة وفائدة للمقتدى ويترك الأثر الحسن على الراحل. ونشطت الرحلات بعد الفتوحات الإسلامية بدرجة كبيرة. وقبل ذلك الرحالة الأوائل لم يسجلوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات إلا قليلاً . وقد جاء ذكر هذه الرحلات في كتب التاريخ أو تقويم البلدان. والرحالة ينقل للقارىء صورا أو طرائق وقصصا ومشاهدات لكل ما رأى وما شاهد. والتراث العربى الإسلامى ملئ من أخبار الرحلات والرحالة وما دونوه عن مشاهداتهم ووصفهم من نماذج رفيعة من أدب الرحلات مما جعل السفر تراثا ليتصل بالجغرافية الوصفية والتاريخ الإسلامى. ولقد سجل الرحالة مشاعرهم بأسلوب جميل ومؤثر. فالرحالة يكتب كتابا متنقلا، تضم صفحاته صورا لبلاد مختلفة التي يمر بها ووصف الأماكن والمساجد والمكتبات والشخصيات ألتي يلتقى بها وجمع معلومات وغيرها.(9)

تقول قدسية قريشي عن السفر: إن المسافر يجد فرصة لأن يشاهد العالم من حيث الاجتماع والمدنية والعلوم والفنون ويشاهد المناظر الطبيعية، كما أنه يقوم بتبادل الآراء مع الناس في الدول المختلفة مما يزيده علمًا ويسعفه على نشر عادات وتقاليد بلده في بلاد أخرى، ويكون السفر أساسًا لتبادل الآداب والثقافة بين الأقوام والبلاد.(10)

وكثير من الرحالة قد جمعوا قدرا كبيرا من المعلومات وأمدوا الثقافة العربية بثروة فكرية وتاريخية وجغرافية وكتبوا الرحلات ألتي قاموا بها.

دواعى الرحلة:

"حث الإسلام على السياحة والسفر لأسباب متعددة ومختلفة، مثل التأمل في المخلوقات، والعبرة من أثار الأمم البائدة،(11) فوردت في القران عدة أيات تقول: "فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .(12) (آل عمران – 137) و"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ،(13) (العنكبوت، 20) "أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا.(14) (الحج، 46)

1-**تيسير السفر** " -اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعا كبيرا، فقد احتاجت الحكومة إلى معرفة أخبار الأقاليم والبلدان المفتوحة لها، ولذلك استعانت الدولة بنظام البريد، فمهّدت الطرق له، وأقامت على الطرق معالم تبين المسافات .(15) يقول المقدسي في وصف طرق الشام: "وتأخذ من دمشق إلى الكسوة بريدين، ثم إلى جاسم ورفيق مرحلة. ثم إلى طبرية ريدا ... ثم من بانياس إلى قدس بريدين.(16)

2-أكثر الرحلات تشير إلى مواقف الشعوب وسلوكهم مع الغرباء الّذين يمرون بهم خلال سفرهم أو يعيشون بينهم لمدة محدودة مثل قول ابن بطوطة عندما

يصف إحدى مدن الهند " كانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما، فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة ولا يزالون يحتفلون في أطعمتهم(17)...

وكان الحكام مشغولين في إكرام الغرباء أكثر من شعوبهم، قام ابن جبير (18) برحلته في عهد صلاح الدين الأيوبي فثنى على موقفه وسلوكه مع الغرباء. قال عن مصر أقيمت المدراس والمستشفى فيه وكل من يأتي إليه يستفيد منهم حسب حاجته وطلبه ويرجع مناقبه في الحقيقة إلى سلطانه.(19)

3- التجارة هي العمل المتاح للرحالة في كل زمان ومكان وحثت كثيرين منهم إلى القيام برحلاتهم.

4- العلم والتعليم هو السبب الّذى دفع كثيرين من الرحالة إلى القيام برحلاتهم.(20)

5- بعض الناس يميلون إلى رحلات بطبيعتهم ويحبون المغامرات يبحثون عن أشياء جديدة، فطبيعتهم دفعتهم وحثتهم إلى الأسفار والبحث عن عالم جديد. (21)

هناك دوافع كثيرة وأسباب متعددة تحمس وترغب الإنسان للرحلات، وقد تختلف من قوم إلى قوم ومن عهد إلى عهد ومن شخص إلى أخر حسب رغباتهم وحاجاتهم ومعظمها:

دوافع دينية :زيارة الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرحمن وتوبة من الذنوب وتطهيرا للنفس، وعهدا للسير على الصراط المستقيم. كان ذلك من أهم دوافع الرحلات.(22)

دوافع تعليمية أوعلمية" :كثير من الناس قاموا برحلات لطلب العلم مثل الطب والفقه والهندسة. ونجد اشارات في كتب الحديث والسير أن بعض الفقهاء

والعلماء قطعوا القفار وعبروا الأنهار والبحور لطلب حديث النبى صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، للسمع به أو لمجرد التحقق من كلمة فيه. وهناك الرحلات التى قام بها المعلمون للإفادة من علمهم في المجالات العلمية المتنوعة.(23)

دوافع سياسية" :الملوك والحكام يبعثون الوفود والسفارات إلى حكام وملوك الدول الأخرى لتوطيد العلاقات أو لتبادل الراى أو لمناقشة الحرب والسلام. (24)

دوافع سياحية وثقافية" :رغبة النفس في التجول والسفر لذاته وحب التنقل وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة ووصف تغيير الأجواء والمناظر والمعرفة الجديدة واكتساب الخبرة، وقد تكون الرغبة لتعرف المعالم الشهيرة، كالمنارات والأبراج والآثار والغرائب والعجائب.(25)

دوافع اقتصادية" :من أهم دوافع الرحلات التجارة أو تناول الأشياء أو فتح أسواق جديدة لمنتجات محلية في بلاد أخرى.(26)

دوافع صحية" : كالسفر للعلاج أو الإستشفاء، وقد يكون هربا من وباء أو طاعون أو تلوث أو قد يكون لإراحة النفس.(27)

دوافع أخرى" :وهناك أسباب أخرى للارتحال، كالسخط على الأحوال وضيق العيش، أو الهروب من عقوبة. وأياما كان الغرض من الرحلة فإنها سلوك إنساني حضارى، ويؤتى ثماره النافعة للرحالين، فالإنسان يحس التغيير في نفسه بعد رحلة" (28)ومن ثمار الرحلات أنها تقرب شعوبا من شعوب وأقواماً إلى أقوام وسبحان من قال:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .(29) (الحجرات – 13) و" ثمار الرحلة لا تتوقف عند التعارف والكشف عن المجهول بل تفيد في الأدب والعلم خاصة

إذا كان الرحالة متمتعا بقوة الملاحظة ويقظة الحواس، وحب المحاورة والرغبة في التحصيل والحرص على التدوين والتسجيل.(30)

ولعل أبرز دور الرحلات في عالم الأدب هو الخدمة الكبرى ألتي قدمتها لعلم الجغرافية، كما أنه كان ذا نفع للمؤرخ وعالم الإجتماع والفلكى والفيلسيوف والسياسى والأديب والإقتصادى.

أسلوب أدب الرحلة:

يمثل أدب الرحلة لونا أدبيا له بواعثه وأهدافه وخصائصه، وله أدوات فنية، ورؤاه المضمونية. وكل ذلك يشكل مع كل رحلة أدبية، وفق غاياتها ومهارات صاحبها في الملاحظة والتسجيل. يقول صاحب معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: "إن أدب الرحلات مجموعة من الأثار الأدبية ألتي تناول إنطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة . وقد يقدم فيها تسجيل دقيق لما يراه من عادات وأخلاق ووصف للمناظر الطبيعية ألتى يشاهدها. ويسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كل هذا في آنٍ واحد.(31)

وعلى المستوى الفنى فإن أدب الرحلة يجمع بعض خصائص القصة والرواية والسيرة الذاتية ويفيد من أدوات فنية مهمة كالقصة والصورة، فيمثل لونا أدبيا فريدا .(32)وبذلك كان للرحلات قيمتان عظيمتان، قيمة علمية وأخرى أدبية.

القيمة العلمية:

"هذه الرحلات تحتوى على كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والإجتماعية والإقتصادية وغيرها مما يسجله الرحالة تسجيل المعاين بإتصاله المباشر بالناس وبالطبيعة وبالحياة خلال رحلته، إذا كان علم الجغرافية مثلا يدرس الظواهر وتفسيرها وتوزيعها

على سطح الأرض فإن الرحالة يسجل مشاهداته الجغرافية على سطح الأرض. ولم يتناول خطوة أخرى في منهجه فإنه يعمل في خدمة هذا العلم من هذا الجانب على الأقل. وعندما يتحدث عن الممالك والبلدان والأقاليم والاصقاع والمدن يصف الطبيعة وعادات السكان وتقاليدها وغير ذلك. فإنه يعد من هذه الناحية مرجعا أساسياً ومعيناً واسعاً وكبيرا للعالم الجغرافى الّذى يبحث ويدرس تلك الموضوعات. (33)

القيمة الأدبية:

تعرض الرحلات في موادها من الأساليب ترفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنى برغم أن أدب الرحلة يتسم من تنوع في الأسلوب من السرد القصصى إلى الوصف وإلى الحوار وغيره ومن أبرز ميزاته أنه يعتمد على السرد المشوق بما يقدمه متعة ذهنية كبرى (34)

يقول شوقي ضيف عن أدب الرحلة " خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة (35)

"وقد يلجأ بعض الرحالين في كتابة رحلته إلى اللهو والتكلف في تزويق العبارة والعبث اللفظي إيثاراً للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجه بغنى تجربة صاحبه، ولا يعنى هذا أن أسلوب أدب الرحلة قد تخلص من كل الصفات والعيوب الأسلوبية الأخرى، فهو يعتمد على السجع أحيانا وعلى الجفاف والصرامة العلمية أحيانا. ومع ذلك يوجد فيه من الطراوة والاخضرار واللين، وهذا الأدب يهتم اهتماماً كبيراً بتنوعه وثروة مادته، فهو تارة علمي وتارة شعبي، وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء تكمن فيه المتعة والفائدة معا ولا يوجد مثيل لها في أي أدب معاصر للعرب. (36)

وأدب الرحلات يتميز بوضوح الحس القصصي في سرد الأحداث واختيارها والقدرة على جذب انتباه القارئ وحسن ختام كل موقف بشكل ممتع ومثير كما فسر د. حسين نصار: "إن الرحلة الأدبية اذا لم تكن رواية ولا قصة بالمعنى الدقيق فإنما هي أخت شقيقة لهما.(37)

مكونات أدب الرحلة:

1-**المعرفة**" :الرحلات مليئة بالعديد من المعارف المتنوعة والعلوم المختلفة، منها ما هو ديني، وما هو تاريخي وما هو أدبي واجتماعي وجغرافي، والرحالة يقدم هذه المعلومات لإفادة القارئ وقد أشار بعض الرحالين في مقدمات رحلاتهم على أن غايتهم هي إفادة القارئ.

2-**السرد** : السرد من أهم مكونات الرحلة، ولا يمكن أن يستغنى الرحالة عنه ما دامت تنقل إلى القارئ وأحداثا وأفعالا قامت به. وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها، والسرد يبدأ مع بداية الرحلة ويستمر إلى نهايتها.(38)

3-**الوصف**" :الوصف والسرد نمطان خطابيان. فالراوي يصف حين يتحدث عن الساكن ويسرد حين يتحدث عن المتحرك، وبعبارة أخرى، يتسم الوصف بالحديث عن المكان أو الأشخاص أو الأشياء ويتسم السرد بالحديث عن الفعل في الزمان ... والوصف يتطلب دقة ملاحظة من الواصف لكى " يستوعب أكثر معانى الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك، فتراه نصب عينيك. "(39)

4-**الشعر** :يعمد الرحالة إلى تضمين بعضا من الأشعار. ويرون في ذلك تأكيدا لكلامهم وتخليق الحيوية وإثارة التشويق لدى القراء وأبعاد الملل عنهم ولارتفاع قيمية رحلته.

خصائص أدب الرحلة:

يتميز أدب الرحلة عن الأجناس النثرية الأخرى بعدة خصائص ومنها هي:

1-**الذاتية** :تحضر ذات الرحالة في رحلته حضوراً بارزاً، وليس هذا بمستغرب ما دامت الرحلة حكيا لسفر، قامت به هذه الذات. وهكذا تحتل الذات المركز في الحل والترحال.

2-**الحكى بضمير المتكلم مفردا أو جمعا**، وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة.

3-**الواقعية** :الرحالة - الراوي – رجل واقعى عاش في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين يتحدث عنهم، هم أيضا واقعيون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف، فالأماكن التي يصفها أماكن حقيقية لها وجود على الأرض. فتختلف الرحلة عن الرواية والمقامة المبنيتين على الخيال.

4-**دورة الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق** :فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرحالة من موطنه، وتسير معه إلى المكان المقصود، ويعود معه إلى نقطة الانطلاق، وهكذا يدور الخطاب مع السفر، وينتهى من حيث بدأ.

5-**تعدد المضامين وتداخل الخطابات**، يشتمل خطاب الرحلة على معارف متنوعة: دينية، وتاريخية، وجغرافية وأدبية وتتداخل فيه خطابات مختلفة: الشعر والرسالة والقصة والحكاية والوصف والسرد والحوار.

نشأة أدب الرحلة وتطوره:

الرحلة منذ أقدم العصور متصلة بتاريخ الإنسان، فنرى أول رحلة قام بها الإنسان من الجنة إلى الأرض كما أشار القران إلى قصة آدم حيث قال: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا

جَمِيعًا.(40) (سورة البقرة، رقم الآية /38.) في الحقيقة ان الإنسان رحالا منذ ولادته إلى موته، وتتعد أشكالها بمرور الأيام وبتغير الظروف والأحوال يقول شوقي ضيف: إن الإنسان ولد راحلا، وإن أعجزته الرحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في العالم الخيال، ونجد ذلك مبثوثا في الأساطير الأولى، كما نجده ماثلا في الحروب والفتوح القديمة، وما سطره الملوك الأول في مصر وغير مصر (41).

يعرف العرب قبل الإسلام التجارة، وهم سافروا لها خارج أوطانهم عن طريق البر والبحر، واشتهروا بالتجارة مع الشعوب الأفريقية والهندية، وهم ارتحلوا بمنتجاتهم إلى العراق والشام واليمن. ولكن لم تسجل أخبار هذه الرحلات تسجيلا خاصا إلا ما ورد في كتب اللغة وفي قصائد الشعر، وكذلك يذكر القران الكريم رحلات قريش الشهيرة:

"لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ.(42) (سورة قريش 1- 2)

"وعندما ظهر الإسلام في الجزيرة العربية حث الناس إلى التنقل والترحال، وشجع على الرحلة ودفع إلى السفر للعلم والسعي في الأرض من أجل الرزق والدعوة والعظة والعبرة والهجرة. مثلا جاء في سورة الملك هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ .(43) (سورة الملك، 17.) وفي سورة الإسراء رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا،(44) (سورة الإسراء، 66.) و جاء في سورة الملك أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً (45) (سورة الملك، الآية 15)

وفي سورة الإسراء وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا(46) (سورة الإسراء، الآية /70.)

وذكر القران الكريم رحلات عديدة منها، هجرة المسلمين من أرض الشرك إلى أرض الاسلام أي من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ورحلة موسى مع الخضر عليه السلام، والدعوة إلى الحج . وبعد الفتوحات الإسلامية فتحت مجالات معرفية تحقق المجد العقلي والحضاري وتتيح الفرصة كاملة للعقل البشرى للابتكار والإبداع، فانطلقت الرحلات وتحمس الكثيرون للسفر، سواء للحج أو طلب العلم أو للتجارة أو للأغراض السياسية. ولقد تعددت أوجه الرحلة وأغراضها بمرور الأيام وحرصت طائفة من الرحالين على تدوين مشاهداتهم وذكر المواقف المتباينة والمعاناة التي لاقوها، بينما هم يجولون في البلاد. وقد سجلوا معارف تاريخية وجغرافية واجتماعية وثقافية عظيمة القيمة. وانفقوا أموالهم وأعمارهم، وبذلوا جهودا جبارة لافتراق الجبال واجتياز القفار وعبور البحار والسير في الدروب الوعرة . وقضوا أعمارهم في الأسفار وعادوا إلى بلادهم، يعكفون على تدوين ما حصلوا وجمعوا وخلفوا لنا تراثا رائعا.(47)

القرن الثالث الهجري:

1- كان معظم رحالة وجغرافيي النصف الأول من القرن الثالث الهجري من اللغويين وأبرزهم هو اللغوي والمؤرخ المعروف هشام الكلبي ألف كتباً (كتاب الأقاليم) و(البلدان الكبير) و(البلدان الصغير) و(أنساب البلدان). والأصمعي(48) الّذي ألّف (الأنواء) و(رسالة في صفة الأرض والسماء والنباتات) والجاحظ (49)

ألف كتابا (كتاب الأمصار وعجائب البلدان) و(التبصير والتجارة) وأحمد بن محمد الطيب السرخسي وقد ألف (رسالة في البحار والمياه والجبال) ومحمد بن موسى المنجم(50) وسليمان التاجر.

القرن الرابع الهجرى:

يعتبر القرن الرابع الهجري من الناحية السياسية عصر الانحطاط النهائي للخلافة الإسلامية ولكنه من ناحية أخرى يعتبر أيضا عصر ازدهار الحضارة العربية. ومن أهم الرحالة لهذا القرن المسعودي(51) وقد صنف كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وابن فضلان (52)وياقوت الحموي وابن سليم الأسواني والاصطخري،(53) وقدامة ابن جعفر (54)وابن حوقل(55) والمقدسي(56) وغيرهم.

القرن الخامس الهجري:

ومن أهم الرحالين ابن بطلان(57) والبيروني(58) وأحمد بن عمر العذري وأبو عبيد عبدالله البكري(59).

القرن السادس الهجري:

وقد تميز هذا القرن بعدد الرحالين الكبير وبقوتهم وأهمية الأثار التي خلفوها، والمناهج التي أتبعوها في جمع المادة وتدوين المشاهدات، ومن هؤلاء أبو حامد الغرناطي الأندلسي له كتابان (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) و(المغرب عن بعض عجائب المغرب) والشريف الإدريسي (60)نزهة المشتاق في افتراق الآفاق) وابن جبير والهروي له (الإشارات في معرفة الزيارات).

القرن السابع الهجرى:

ومن كبار الرحالين ياقوت الحموي(61) الف كتابين (معجم البلدان) و(معجم الأدباء) وعبد اللطيف البغدادي(62) صنف كتاب (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) ويوسف بن يعقوب الدمشقي المشهور بابن المجاور(63) ألف (تاريخ المستبصري)

وزكريا القزويني(64) ألف (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وآثار البلاد وأخبار العباد) ومحمد العبدري خلف لنا (الرحلة المغربية).

القرن الثامن الهجري:

ومن أهم رحالة هذا القرن شمس الدين الدمشقي صنف كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) وأيضا ابن رشيد الفهري ومحمد التجاني(65) وأبو فضل العمرى(66) وابن بطوطة(67) وغيرهم كثيرون.

من القرن التاسع إلى بداية النهضة العربية:

ومن أهم رحالة هذا القرن عبد الغني النابلسي دوّن رحلة باسم (الرحلة الحجازية) والطرابلسي والعياشي. وقد قلت الرحلات في هذه الفترة من الزمن بسبب أوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

والخلاصة:

يعد أدب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يأخذ المعلومات والحقائق من المشاهد الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءته مفيدة وممتعة ومسلية. وأدب الرحلات أدب واقعي في الغالب ومساحة الخيال في أدب الرحلات قليلة جدا لأنه يعتمد في الاساس على الواقع من الناس والعادات والتقاليد والطعام والشراب والآثار والأماكن والمعلومات.

وأن الرحلة حقيقة ومتعة ومؤانسة وحرص على المزيد من المعرفة. وأنها ليست مجرد سجل الدليل بل تلقى الضوء على جوانب الحياة من المشاعر والانفعال والأفكار والعواطف والأفراد والحوادث والآثار السلبية والإيجابية وغيرها. وتقدم الواقع، والأحوال، والانطباعات، والمعلومات في ثوب أدبى.

والرحلة الجيدة دائما تحتوى على عمق المشاهدة والفنية وعرض الثقافة وغرس الشعور لوحدة الأمة رغم اختلافهم وأن تشتمل على تصوير حقيقي للبلاد الأجنبية والثقافات المختلفة والّذى يشوق القارئ ويفتح له باب التفكير والتعبير.

الهوامش:

1-عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادى، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، بحث الماجستر، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية 1997م،ص: 9.

2-إبراهيم مصطفى – أحمد حسن الزيات – حامد عبد القادر – محمد على النجار، المعجم الوسيط، مؤسسة الصادق لطبعة والنشر، 2،1 /324.(ر ح ل)

3-المرتضى، الزّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، تاج العروس، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية- الرياض، 2010م، 61/29. (ر ح ل)

4-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، 11/ 276.

5-إميل يعقوب وبسام بركة ومى شيحانى، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية: عربى-انكليزى – فرنسى، دار العلم للملايين – لبنان، ط:1، 1997 م، ص: 25.

6-انجيل بطرس، الرحلات فى الأدب الإنجليزى، مجلة الهلال، مصر، العدد 7، 1975م، ص:52.

7- الموسوعة العربية العالمية، 11/ 136،

8- محمد شهاب الدين، أردو ميں حج کے سفر نامه، يونورسل بک هاوس على گڑھ(ب،ت)

9-عبد الله بن حمد الحقيل، صور من أدب الرحلات إلى الحرمين الشريفين، مكتبة التوبة المملكة العربية السعودية، ط:1، 2007 م، ص: 16، 17.

10- قدسية قريشى، اردو سفر نامه انسيوين مين، نصرت ببلشرز حيدرى ماركيت، آمين آباد لكهنو 1987م، ص:21. (الاصل باللغة الأردوية وقد ترجمته).

11- سمير عبد الحميد، الجزيرة العربية في أدب الرحلات الأردوى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة 1999م، ص: 15.

12-آل عمران – 137

13-العنكبوت – 20

14- الحج – 46

15-أنظر: د. حسين نصّار، أدب الرحلة، مكتبة لبنان، ط:1، 1991م،ص: 5.

16- أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، 1991م، 190/1.

17- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية – القاهرة، 1905 م، ص:9.

18- ابن جُبَير: محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين: رحالة أديب. ولد في بلنسية (Valence) عام 540 هـ. ونزل بشاطبة، وبرع في الأدب، ونظم الشعر. وتوفي 614 ه .**أنظر** :خير الدين الزركلي الدمشقي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط: 2002م، 319/5.

19-أنظر: ابن جبير، ص: 15

20- محمد شهاب الدين، أردو ميں حج کے سفر نامــه، ص: 19.

21- أنظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة فى التراث العربى، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط: 3، 2010 م، ص: 26.

22- قدسية قريشى، أردو سفر نامه أنيسويں صدى ميں، ص: 61.

23- .أنظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة فى التراث العربى، ص: 19.

24- سمير عبد الحميد نوح،الجزيرة العربية فى أدب الرحلات الأردوى،ص: 17.

25-أنظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة فى التراث العربى، ص: 20.

26-أنظر: د. حسين نصار، أدب الرحلة، ص: 26-38.

27-فؤاد قنديل، أنظر: أدب الرحلة فى التراث العربى، ص: 20.

28-أنظر: المرجع السابق، ص: 21.

29-الحجرات – 13

30-فؤاد قنديل، أدب الرحلة فى التراث العربى، ص: 20.

31-مجدى وهبة – كامل المهندى، معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب، ط / 2، 1948م، ص: 16.

32- .عبد الله بن أحمد بن آل حمادى، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ص: 9.

33- حسينى محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس – بيروت – لبنان، ط: 2، 1983م، ص: 7-8.

34-المرجع السابق، ص: 9.

35-شوقى ضيف، الرحلات، دارالمعارف – القاهرة، ط: 4، ص: 6.

36-أنظر: حسينى محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص: 9.

37- حسين نصار، أدب الرحلة، ص: 132.

38-تخليقى أدب نمبر 2، ص: 114، ناشر، عصرى مطبوعات كراچى 1985

39- أبوهلال العسكرى، كتاب الصناعتين، تحقيق: على محمد البجارى و محمد ابو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت 1986 م، ص: 128.

40- .سورة البقرة، رقم الآية /38.

41-شوقى ضيف، الرحلات، ص:3.

42- . سورة قريش 1- 2

43- .سورة الملك، 17.

44- . سورة الإسراء، 66.

45-سورة الملك، رقم الآية /15

46-سورة الإسراء، رقم الآية /70.

47-أنظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة، ص: 29- 36.

48-هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي: راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، ولد في البصرة سنة 122ه – 740م ووفي فيها سنة 216ه – 831م. أنظر: الأعلام، 162/4.

49-.هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ولد سنة 163ه -780م في البصرة وتوفي سنة 255ه - 869م. أنظر: الأعلام، 74/5.

50-هو محمد بن موسى بن شاكر المنجم الخوارزمى، كان عالما بالنجوم والهندسة والحكمة والموسيقى. أنظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان،دار صادر، بيروت، ط:2، 1995م، 2/ 61.

51-هو أبو الحسن على ابن الحسين بن على بن عبد الله الهزلى المسعودى. وهو مؤرخ وجغرافى وفلكى وفقيه ورحالة عربي. كان من بغداد، وأقام بمصر وتوفي فيها سنة 346هـ - 957م. أنظر: الأعلام، 277/4.

52-هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، صاحب الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، المعروفة ب "رسالة ابن فضلان". كان مولى القائد العباسى محمد بن سليمان، توفي سنة 310ه – 922م. أنظر: الأعلام، 195/1.

53-هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسى الإِصْطَخْري، فارسى الأصل، و واحد من كبار الرحالة والجغرافيين في القرن الرابع الهجرى. وصاحب كتاب المسالك والممالك، توفي سنة 346ه – 957م. أنظر: الأعلام، 61/1.

54-هو قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادى. ولد سنة 275 هـ. هو كان أديبا وناقداً ومن أبرز رحالة العرب ألف عدة مؤلفات وله شهرة عظيمة في الأدب العربى، توفي ببغداد 337ه – 948م. أنظر: الأعلام، 5 /191.

55-هو أبو قاسم محمد بن على بن حوقل ولد في مدينة (نصيبين)، ونشأ في بغداد. المصادر ساكتة عن تاريخ ميلاده. وكان من أبرز جغرافيي ورحالة القرن الرابع الهجرى، وتوفي بعد 367ه- 977م. أنظر: الأعلام: 111/6.

56-هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسى. ولد بالقدس سنة 336 هـ - 947 م. ومن أشهر أعماله أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. أنظر: الأعلام: 312/5.

57-هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان، طبيب مشهور وشاعر وفيلسوف نصرانى من الكرخ بالعراق. توفي عام 458هـ. أنظر: الأعلام، 191/7.

58-هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيرونى الخوارزمى ولد في ذى الحجة سنة 362 هـ - 973م في خوارزم. كان الفيلسوف والمؤرخ والجغرافى والفلكى والرياضى، ومات في بلده سنة 440ه – 1047م. أنظر: الأعلام، 314/5.

60-هو أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسي، ولد عام 405 هـ. وكان ناقدا ومؤرخا وفقيها وجغرافيا. وتوفي 487ه. أنظر: الأعلام، 98/4.

61- هو محمد بن عبد الله عمر بن ادريس بن الحسين بن على بن أبى طالب ولد سنة 493هـ - 1100م في مدينة سبتة، ونشأ وتعلم بقرطبة. وكان من أبرز جغرافيي ورحالة العرب في القرون الوسطى. وتوفي سنة 560ه – 1165م

62-هو أبو عبد الله شهاب الدين الحموى البغدادى. أصله من الروم، ولد سنة 574ه – 1176م. وكان من أبرز رحالي وجغرافي العرب. كان عالما بعلوم عديدة منها اللغة والأدب والجغرافيا وعلوم الشريعة وله كتب عديدة منها معجم البلدان ومعجم الأدباء، توفي سنة 626ه - 1229م. أنظر: الأعلام: 131/8.

63-هو موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على بن أبى السعد المعروف عبد اللطيف البغدادى. وهو الإمام الفقيه المحدث اللغوى الفيلسوف الرحالة. ولد سنة 557 هـ وتوفي 629 هـ. أنظر: الأعلام، 61/4. 419.

64- .يوسف بن يعقوب بن محمد بن علي الشيبانيّ الدمشقيّ، أبو الفتح، جمال الدين ابن المجاور: مؤرخ، عالم بالحديث. ولد سنة 601ه -1205م وتوفي 690ه -1291م. أنظر: الأعلام، 258/8.

65-هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني، الانصاري (أبو يحيى، عماد الدين) مؤرخ، جغرافي. ولد بقزوين سنة 605ه – 1208م ورحل إلى الشام والعراق. وتوفي سنة 682ه - 1283م. أنظر: معجم المؤلفين، عمر بن رضا كحالة،4 / 183، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط:1، 1993م.

66-هو عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد ابن أبي القاسم، أبو محمد التونسي: رحالة، أديب من أعيان الكتّاب. ولد ونشأ بتونس سنة 675ه – 1276م وتوفي 721ه – 1321م. أنظر: الأعلام: 125/4.

67-هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بَطُّوطَة، ولد في 17 من رجب سنة 703 هـ - 1304م وتوفي 779ه – 1377م. وكان من أشهر الرحالة العرب على الإطلاق. أنظر: الأعلام،

المحاضرة السادسة/ القصة على لسان الحيوان

تعتمد قصص الحيوان على الرمز بوصفه وسيلةً فنيةً تهذيبيةً، يتمكن عن طريقها الكاتب من نصح ووعظ وإرشاد المتلقي، بطريق غير مباشر.. هو السرد على لسان الحيوان، ومن هنا ارتبط هذا النوع الأدبي بالحيوان(1) وتمت تسميته بـ(أدب الحيوان)، ويُعرّف بكونه عبارة عن "قصص رمزية يحرك كاتبها حيواناته كما يشاء، ويُنطقها بما يريد، وهدفه من ذلك قول ما لا يستطيع قوله على لسانه، أو على لسان إنسان آخر، لظروف تمنعه من التصريح".(2)

ويرى عبد الحميد يونس أن هذا النوع من الحكي "عبارة عن حكاية حيوان تستهدف غاية أخلاقية، وهي قصيرة تقوم بأحداثها حيوانات تتحدث وتتصرف كالأناسي، وتحتفظ مع ذلك بسماتها الحيوانية، وتقصد إلى مغزى أخلاقي."(3)

وتحمل كتب التراث أشتاتاً من الخرافات عن الحيوانات والجمادات والأفلاك والنباتات، ولعل أشهر الكتب -على سبيل المثال لا الحصر- التي ظهر فيها هذا النوع من الأدب الرمزي هي: "مجمع الأمثال" للميداني، ففيه نماذج من إنطاق الحيوانات كلاماً، وكذا كتاب: "الحيوان" للجاحظ، وكتاب "حياة الحيوان" للدميري، و"محاضرات الأدباء" للراغب، و"البصائر والذخائر" لأبي حيان.

وعلى الرغم من كثرة الكتابات الرمزية إلا أن "ابن المقفع" يُعدُّ المؤصل الأول، أو المؤسس الحقيقي لهذا النوع الأدبي في التراث القصصي العربي المدّون، حيث استعار "ما وضع على ألسنة البهائم والطير في خلق منظومة رمزية لنص مضاد للسلطة، وكان "كليلة ودمنة" أول نص مدّون لهذه الحكايات والخرافات في إطار الثقافة العربية".(4) فظهرت بسببه كثير من الكتب النثرية والمنظومات الشعرية، التي

تحاكيه وتنسج على منواله، إلى أن جاء كتاب "فاكهة الخلفاء" لابن عرب شاه، بوصفه آخر حلقة -قبل العصر الحديث- في سلسلة الكتابات الرمزيّة، أو القصص على لسان الحيوان، "فإذا كان كتاب كليلة ودمنة -بشهرته العربية والعالمية الطاغية- هو أول كتاب في تراثنا القصصي ينتقل بقصص الحيوان الرمزية العربية من مرحلتها الشفاهية إلى مرحلتها الكتابية؛ فإن كتاب فاكهة الخلفاء هو آخر كتاب في التراث العربي على لسان الحيوان".(5)

وقد تتبع محمد غنيمي هلال أشهر الأجناس الأدبية، ودرسها في نواحيها المقارنة؛ ليوضح كيف تم تبادل الصلات بين الآداب المختلفة، وكان من ضمن هذه الأجناس التي رصدها (القصة على لسان الحيوان)، حيث بحث جذورها التاريخية القديمة، وكيف نشأت شعبية أو أسطورية، ثم أخذت في الارتقاء كجنس أدبي له مكانته، وقد توصل في دراسته المقارنة للخرافة أو الحكاية على لسان الحيوان إلى أن ترجمة ابن المقفع لكتاب "كليلة ودمنة"، من اللغة البهلوية إلى اللغة العربية -حوالي القرن الثامن الميلادي- كانت سبباً في خلق هذا الجنس الجديد في الأدب العربي القديم، ثم توالت المؤلفات التي حاكته، ونسجت على منواله نظماً ونثراً، يقول غنيمي هلال:

"كانت ترجمة عبدالله بن المقفع هذه سبباً في خلق هذا الجنس الأدبي الجديد في اللغة العربية، ذلك أن حكايات الحيوان في الأدب العربي القديم قبل كليلة ودمنة كانت إما شعبية فطرية تشرح ما سار بين العامة من أمثال، وإما مقتبسة من كتب العهد القديم، أي ذات طابع ديني يتصل بالعقائد، وأما ما عدا ذلك فمتأخر عن كليلة ودمنة ومتأثر به".(6) ولعل الحالة السياسية المضطربة، التي كانت تسود البلاد

في زمن المنصور، الذي يشبه بـ"دبشليم"، كانت من الدوافع الأساسية التي ألجأت ابن المقفع لترجمة هذا الكتاب.

وقد شُغف الكُتّاب والشعراء بمحاكاة "كليلة ودمنة" فأخذوا ينسجون على منواله، فمنهم من عارضه، ومنهم من نظمه شعراً، ومنهم من حذا حذوه فألف وأبدع، ففي العصر العباسي الأول عهد "جعفر بن خالد البرمكي"(7) إلى "عبدالله بن هلال" بترجمة الكتاب مرة ثانية له،(8) ولكن لم يصل إلينا شيء من هذه الترجمة. كما كلَّف جعفر "أبان اللاحقي" بنظم كليلة ودمنة، فنظمه في 14000 بيتا، لم يبق منها سوي سبعين بيتًا ذكرها "الصولي" في كتابه "الأوراق"، وهناك أيضًا: "نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة" للشريف ابن الهبّارية، وهو الذي ألف كتاباً آخر على شاكلته سماه "الصادح والباغم"، كما نظم الكتاب شعراء آخرون منهم: علي بن داود وبشر بن المعتمر،(9) ثم نظمه في عهد "صلاح الدين" أسعد بن مماتي في مصر، ثم نظمه أيضاً "عبد المؤمن بن الحسن بن الحسين الصاغاني" تحت عنوان: "غرة الحكم في أمثال الهنود والعجم"، كما نظمه "جلال الدين الحسن بن أحمد النقاش" في القرن التاسع الهجري وغيرهم كثير، وقد كان أخرها في العصر الحديث منظومة "الشيخ محمد بن عبدالرحيم ترة" تحت عنوان: "زعموا أن" أو "كليلة ودمنة". وللأسف، فإن كثيراً من هذه المنظومات قد ضاع، ولم يصلنا، وبعضها ما يزال حبيساً في مكتبات الغرب، خاصة: فيينا وميونخ، ومكتبة المتحف البريطاني، وقلة قليلة هي التي طبعت.(10) وعلى هذا الأساس يُعدُّ كتاب كليلة ودمنة هو العمدة أو المؤصل الأول، فلم يقتصر تأثيره على المنظومات الشعرية، بل تعدى ذلك كله، حتى وصل إلى الكتابات الفلسفية والفكرية. فمن الفلاسفة "إخوان الصفا" في القرن الرابع الهجري، فقد وظفوا الحيوانات وأجروا على ألسنتها آراءهم الفلسفية، فجاءت مبادئهم الفكرية داخل قوالب

قصصية مبنية على الحوار والمناظرة لعالم الحيوانات والجن والإنسان، ففي رسالتهم "تداعي الحيوانات على الإنسان" تقرأ في نهايتها تصريح الإخوان بغرضهم وباعثهم الحقيقي من توظيف الحيوان: "ونحن قد بيّنا في هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب على لسان الحيوان، فلا تظنن بنا ظن السوء، ولا تعد مقالتنا ملعبة الصبيان، ومخرفة الإخوان؛ لأن عادتنا جارية على أنَّا نبين الحقائق بألفاظ وعبارات على وجه الإشارات، وتشبيهات على لسان الحيوانات، ومع هذا لا نخرج عما نحن فيه، عسى أن يتأمل المتأمل في هذه الرسالة وينتبه من نوم الغفلة، ويتعظ من مواعظ الحيوانات وخطبهم، ويتأمل كلامهم وإشاراتهم لعله يفوز بالموعظة الحسنة".(11)

هكذا قام القص الرمزي بالدور المنوط به على أكمل وجه، لما وُجد فيه من خير معين، وأحسن خادم ومطيع، فعلى لسان الحيوان لبى المفكرون نداء أفكارهم المكبوتة -بسبب القمع السلطوي- ووصل الكُّتاب إلى غاياتهم المقصودة، وكان من أبرزهم "سهل بن هارون"، فينسب إليه كتابان أحدهما بعنوان: "ثعلة وعفراء"، والآخر -ونسبته إليه فيها نظر- بعنوان: "النمر والثعلب"، وأيضاً: "محمد بن أبي القاسم بن علي القرشي المالكي"، ألف كتاب: "سلوان المطاع في عدوان الأتباع"، وكتب "عبد السلام بن أحمد بن غانم المقدسي"(12)"كشف الأسرار عن الحكم المودعة في الطيور والأزهار"(13)

ومن اللافت أنّ حكايات "ألف ليلة وليلة" قد حظيت بنصيبٍ وافرٍ من قصص الحيوان، حيث "أفردت الليالي صدرها لمجموعة كبرى من هذه القصص جاءت متصلة في قرابة نصف مجلد من مجلداتها الأربعة، كما جاءت متفرقة، متناثرة، في سائر قصص الليالي -كحكايات فرعية- ترويها شهرزاد تأكيداً لمبدأ أو تدليلًا لقضية، أو تفسيراً لسلوك، أو شرحاً لبعض الطباع الإنسانية، أو حسماً لموقف، أو

برهانًا لفكرة"(14) .فتطل حكايات الحيوان برأسها من مطلع الحكاية الإطارية لليالي، عندما تطلب "شهرزاد" من أبيها أن يزوجها "شهريار"؛ لتكون سبباً في إنقاذ بنات المسلمين، وحيلة لخلاصهن من المصير الأسود الذي يقضي عليهن الواحدة تلو الأخرى فجر كل صباح، ويجد الأب في طلب ابنته مخاطرة بالنفس، فيرفض طلبها بشدة، ولكنها تُلح عليه فيحاول أن يثنيها عن قرارها بحكاية "الحمار والثور مع صاحب الزرع."(15)

ولقد كتب السيوطي مقاماته، فجاءت مجموعة منها قائمة على المناظرات والمساجلات، حيث وظف الرمز في ثلاث مقامات هي: "مقامة الرياحين"، و"المقامة المسكية"، و"المقامة الياقوتية". هكذا توالت الأعمال السردية الرمزية، التي اتخذت من الرموز الحيوانية أبطالًا وشخوصاً، إلى أن جاء كتاب "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" لابن عرب شاه، بوصفه آخر كتاب تراثي -قبل العصر الحديث- على ألسنة الطيور والحيوانات.

الهوامش:

1 .أطلق "جيرار جينيت" على هذا النوع الأدبي: (الخرافة الحكميّة أو الخرافة الحيوانية)، وذهب إلى القول بأنها: "أمثولة ذات وظيفة إقناعية" انظر: جيرار جينيت: خطاب الحكاية "بحث في المنهج"، ترجمة: محمد معتصم، عبدالجليل الأزدي، عمر حلي، المجلس الأعلي للثقافة، ط2، 1997م، ص: 244.

2. محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب (جزآن)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط1، 1993م، ص: 45

3.عبدالحميد يونس: الأعمال الكاملة، مجلد (1)، قام بالجمع والتنسيق: عائشة عبدالرحمن الحميسي، تقديم: أحمد علي مرسي، محمد الجوهري، مصطفى جاد، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة، 2007م. ص: 435

4.ضياء الكعبي: السرد العربي القديم "الأنساق الثقافية وإشكايات التأويل"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت، ط 1، 2005م، ص: 237

5.أحمد بن محمد بن عرب شاه: فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، تحقيق: د. محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ القاهرة، سلسلة الذخائر، عدد (94)، ط1، 2003م، ص: 7

6.محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، نهضة مصر ـ القاهرة، 2004م، ص: 151/ .

7. كان "جعفر بن خالد البرمكي" من المثقفين الفرس، الذين يعملون في خدمة البلاط العباسي، ولمّا كان زمام السلطة الثقافية في بدايات الدولة العباسية بأيدي الفرس -ولاسيما البرامكة- فقد بادروا إلى التعصب لكتاب "كليلة ودمنة"، ورصدوا الجوائز السنيّة لمن يحاكيه شعراً حتى يسهل حفظه وذيوعه بين العامة والخاصة. ولعل الشعوبية سر الاهتمام الكبير بكتاب "كليلة ودمنة"؛ الصراع المشتجر بين العرب والفرس سياسيًا وثقافيًا -دفع البرامكة- أحفاد الفرس إلى تبني كل مأثور يعود إلى الثقافة الفارسية... انظر: محمد رجب النجار: التراث القصصي في الأدب العربي"دراسة سوسيوسردية"، ذات السلاسل ـ الكويت، 1995م ـ ص143

8. / . كانت الترجمة الأولى "لابن المقفع."

9. / محمد فتحي الريس: القصة على لسان الحيوان بين العربية والفارسية، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلدان: (32-33)، الجزءان: (1،2)، مايو، ديسمبر (1970ـ1972م)، ص: 336.

10.محمد رجب النجار: التراث القصصي في الأدب العربي "دراسة سوسيوسردية"، ذات السلاسل- الكويت، 1995م، ص: 143 ـ 144.

11. إخوان الصفا: تداعي الحيوانات علي الإنسان، تقديم: فاروق سعد، منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط2، 1980م، ص: 263.

12. هو أحد المبرزين في الوعظ والنظم والنثر وينسب إليه كتاب: "كشف الأسرار"، ألفه في عصر "السلطان بيبرس"، انظر: محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المجلد السادس: في النثر الفني، مكتبة الآداب ـ القاهرة، 1962م، ص: 74.

13. ذكر "شوقي ضيف" أن: "هذا الكتاب الطريف يقع في 30 صفحة، وقد جعله المؤلف على ألسنة الأزهار، ثم ألسنة الطيور، ثم ألسنة الحيوان، ليكون موعظة لأهل الاعتبار، وتذكرة لذوي الأبصار والاستبصار، فهدفه التعليم والوعظ ودفع الإنسان إلى السير في الطريق السديد، واعيًا لحكمة الله في خلقه، متعظًا بما تورده عليه الحيوانات والأطيار والأزهار من مواعظ وحكم وأمثال" انظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي "عصر الدول والإمارات

14. / ."محمد رجب النجار: التراث القصصي ـ مرجع سابق ـ ص: 146.

15. هي أولى قصص الحيوان في ألف ليلة، جاءت -قبيل الليلة الأولى- في مدخل الليالي. ولمزيد من التفاصيل راجع: ألف ليلة وليلة: إعداد: رشدي صالح، دار الشعب، د.ت، ص: 18 – 20.

رابط الموضوع: الكاتب:أحمد علواني، من كليلة ودمنة حتى فاكهة الخلفاء، ت النشر:2021/02/07. مجلة الرافد الالكترونية.:-https://arrafid.ae/Article Preview?I=9c4TwHtw2Ek%3D&m=5U3QQE93T%2F0%3D

نموذج تطبيقي من كليلة ودمنة:

(رابط الموضوع المرجع: https://www.twinkl.com/teaching-wiki/ktab-klylt-wdmnt)

كليلة ودمنة كتاب شهير بل أسطورة تُسجَل من إبداعات الأدب العربي والعالمي، وقد تم كتابته على ألسنة الحيوانات. اختلف العلماء في أصل كتاب كليلة ودمنة لكن أجمع الباحثون على أنّ هذا الكتاب هندي الأصل. شاع الكتاب بين المجتمعات المختلفة وأثرى الأدب العالمي كله وتم ترجمته إلى العديد من اللغات. يرجع سبب شهرة كتاب كليلة ودمنة إلى حاجة الناس إليه لأنه يتناول العلاقة بين الحاكم والمحكوم وكيفية التواصل بينهما، فجاء الفيلسوف (بيدبا) لينصح الملك آنذاك على لسان الحيوانات. يرتبط كتاب كليلة ودمنة لدينا بالقراءة وحب القراءة وأصالة الأدب والبلاغة اللغوية.

التعريف بكتاب كليلة ودمنة:

هو كتاب يحتوي على مجموعة من القصص الخرافية. اتفق كثير من الباحثين على أن الكتاب تعود نشأته إلى الجذور الهندية. قام بترجمة الكتاب عبد الله بن المقفع إلى اللغة العربية في العصر العباسي تحديداً في القرن الثاني الهجري والقرن الثامن الميلادي ولكن بإضافة طابع كتابته الخاص به. قبل ترجمة كتاب كليلة ودمنة إلى اللغة العربية، تمت ترجمته إلى اللغة البهلوية أو اللغة الفارسية الوسطى في بداية القرن السادس الميلادي.

نبذة عن عبد الله ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة:

يُعتبر ابن المقفع أحد أبرز أدباء عصره حيث كان شاعراً فصيحاً وكاتباً. وُلد في فارس في عام 724م، وعاش ومات في البصرة، واسمه هو عبد الله بن المقفع الذي أشتهر به بعد إسلامه، فكان اسمه هو روزبه بن داذويه قبل ذلك. أسلم ابن المقفع على يد الأمير عيسى عم السفاح (الخليفة العباس: أبو العباس)، وقد اتّهم بالزندقة، كما قام بترجمة كتاب كليلة ودمنة الذي يشتهر به في سماء الأدب العربي وترك له رصيد جليل من التميز.

يُعتبر ابن المقفع أول من اهتم بترجمة كتب المنطق من المسلمين، وهو فارسي الأصل عاش في عهد الدولة الأموية والعباسية، وترعرع في ظل أسرة فارسية تعتنق المجوسية، كما حرص والده على تعليمه وتحفيزه على المعرفة والكتابة، وخاصةً حرصه على تعليمه اللغة العربية التي كانت لغة العلم والأدب في ذلك الوقت، ثم عمل ابن المقفع في دواوين الولاة ككاتب، قبل أن يتوجه نحو العمل ككاتب في ديوان الخليفة في البصرة حيث أسلم في ذلك الوقت، وساعدته إقامته في البصرة على التعرف على أهل الفقه والشعر والحديث والأدب واللغة، مما جعله يحيط بأسرار وأساليب اللغة العربية بشكل جيد ومتقن.

نبذة عن مقدمة كتاب كليلة ودمنة:

تروي مقدمة الكتاب رسالة من العالم الهندي (بيدبا) إلى الملك (دبشليم) ملك الهند. تتمحور شخصيات كتاب كليلة ودمنة حول الطيور والحيوانات والتي تعكس حال الشخصيات البشرية في المجتمع آنذاك، وهذا تمثيل عظيم يوضح فكرة الكاتب مع إثارة انتباه القارئ لتوصيل الغرض من الكتاب بشكل مبتكر وتفاعلي.

يتكون كتاب كليلة ودمنة من سلسلة من القصص التخيلية الأسطورية التي قامت بتغطية أكثر من موضوع. من أبرز هذه المواضيع هي علاقة الملك وشعبه التي طالما كانت محور اهتمام الناس في ذاك الوقت. تشمل القصص العديد من الأمثال

والخطب التي أثرت نمط الكتابة وتوضح تأثير الكاتب على القارئ. وعندما انتشر الكِتاب واشتهر ما فيه من خطب وأمثلة، أمر (خسرو) الطبيب (بورزويا) بالسفر إلى الهند ونسخ ما في الكتاب وترجمته إلى اللغة البهلوية أو الفارسية. ونال الكتاب إعجاب الملك (فاختانج السادس) ملك جورجيا فأمر بترجمته إلى اللغة الجورجية في القرن الثامن عشر. وقد استخدم هذه الترجمة كمرجع لاحقاً في أثناء تحديد النص الأصلي للكتاب جنباً إلى جنب مع ترجمة سابقة غير مكتملة ولكن تم الاقتباس منها.

محتويات كتاب كليلة ودمنة:

يتكون كتاب كليلة ودمنة من خمسة عشر فصلاً تحتوي جميعها على قصص خيالية أسطورية بأبطال تشبيهية من الطيور والحيوانات. ومن الشخصيات البارزة التي يدور حولها أحداث الكتاب هي شخصية الأسد الذي يلعب دور الملك وخادمه الثور (شتربه) بالإضافة إلى اثنين من حيوان ابن آوى وهما كليلة ودمنة.

كما يتضمن الكتاب أربعة أبواب أخرى، وردت في الصفحات الأولى من الكتاب وهي: باب المقدمة وباب بعثة برزويه إلى بلاد الهند وباب عرض كتاب ترجمة عبد الله بن المقفع وباب برزويه ترجمة البختكان.

وقد كان للنسخة العربية دور هام في انتشاره وشهرته في البلدان الأخرى حيث تم ترجمته إلى لغات أخرى عدّة عن طريق النسخة العربية.

يحتوي الكتاب على مجموعة من القصص الأخلاقية، موضوعة على لسان الحيوانات والطيور لتوجه رسائل أخلاقية معينة مثل الصداقة. تطول وتتسع القصة لتضم في جوانبها قصصًا أخرى متداخلة، إلى أن تصل في النهاية إلى حلقة متشابكة من القصص يفضي بعضها إلى بعض، عاقدةً عالمًا من الحكم والتجارب، ينهل منه القارئ مستزيدًا من تلك الحكم في كل قراءة جديدة للكتاب، منبهرًا برشاقة الأسلوب وعمق الفكرة والأسلوب المتميز والمبتكر.

قصص الكتاب:

القرد والنجار.الثعلب والطبل.القملة والبرغوث.القرود والطائر والرجل.التاجر المستودع حديداً.الرجل والذئب والقوس.ابن آوى والأسد والحمار.الحمامة المطوقة.

السائح والصائغ.اللبؤة والأسوار والشغبر.الناسك والضيف.الجرذ والسنور.

المكاء الطائر والسرطان.الصفرد والأرنب والسنور.

وكما نرى أن جميع روايات كليلة ودمنة تم تقديمها على لسان الطيور والحيوان ليقدم الكاتب ما يريد أن يعرضه من رسائل تفيد بالعلاقات الإنسانية بدايةً من صداقة إلى نصيحة الكاتب في عدم الاغترار بالعدو مهما أظهر صدق نواياه بالإضافة إلى علاقة الصداقة وغيرها. وقد صرح ابن المقفع أكثر من مرة أن للكتاب غرضًا ظاهريًا وآخر باطنيًا، فيقول: "وكذلك من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه ولم يعلم غرضه ظاهرًا أو باطنًا لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه".

مميزات كتاب كليلة ودمنة:

تميز كتاب كليلة ودمنة بالعديد من الخصائص والميزات، ومنها ما يأتي:

- اعتماد الكتاب على الأسلوب القصصي، حيث تتابعت القصة وراء الأخرى، وتأتي شخصيات مختلفة في العرض القصصي.
- اختيار الطيور والحيوانات لتكون معظم شخصيات القصص الواردة في الكتاب، ولذلك فإنّها تنتمي إلى عالم مجهول من الإنسان.

- استخدام لغة سهلة ولينة، تجعل الكتاب خالي من الملل؛ وذلك بسبب استخدامه أسلوب الحوار والاعتماد على الفكاهة وخفة الظل في طريقة العرض في بعض الأحيان.
- امتلائه بالحكم والأمثال، حيث تُعبر هذه عن آراء الفلاسفة وتجارب الشعوب القدماء.
- تمجيد العديد من الفضائل الأساسية، مثل: الوفاء والكرم والشجاعة والعفة وغيرها وإبرازها من طريق سرد الكتاب مراراً وتكراراً لتوكيد المعنى.
- تصوير بيئة الملوك والحكام والحاشية التي تُحيط بهم، وتستهوي هذه البيئة اهتمام العامة وهي مُحببة لقلوب الجماهير لما لهذه القضية من أصول داخل معظم المجتمعات وتأثير عظيم على حياتهم.
- تطبع الكتاب بالطابع الديني، ويظهر هذا بوضوح عن طريق ذكر ألفاظ الرضا بالقضاء والقدر وأحوال الدنيا والدين وبداية وآخرة الإنسان.

خصائص كتاب كليلة ودمنة:

خصائص كتاب كليلة ودمنة الشكلية:

- الشكل: الحكاية المتخيّلة التي يقوم فيها الحيوان بدور البطولة.
- المضمون: الرمز والحكمة الخفية.
- واعتماد هذا الأسلوب له غايات عدّة ألا وهي:
- الإمتاع: من طريق ما تتضمنه الحكاية من خيال ومن فنون سرد القصص.
- التمويه: التخفي وراء الحيوان للتحرر من الرقابة وتعزيز الحرية في الكتابة.

- النّقد والإصلاح: الحكاية مضمونها عبرة، تحمل مغزى، غايتها الحقيقيّة هي التعليم ونقد الواقع (السياسة والمجتمع والأخلاق) والإصلاح والتأسيس لقيم الخير والفضيلة والحق والعدل والعقل.

خصائص كليلة ودمنة الفكرية:

يعتبر كتاب كليلة دمنة منبع دلالات عدّة ومتنوعة، فكل شيء فيها جدير أن يكون دليلاً. والبناء العام للكتاب يكون نصوصًا سردية تحمل أبعاد دلالية ورمزية حيث اعتنى المؤلف بنسجها وهيكلتها من أجل الإيحاء بها إلى معنى ودلالات خاصة.

والملاحظ على البنية العامة في كليلة ودمنة، أنها تتشكل من عنصرين أساسين هما:

أولاً: القصة وهي الإطار بما تحتوي من أبواب أمثال لها مقوماتها السردية الخاصة بها.

وثانياً: التداخل السردي الذي يتضح في شكل قصة داخل قصة، لكلٍ مقوماتها السردية الخاصة بها.

والنص العام يتصدره عنوان أساسي، كما يتصدر كل باب عنوان خاص به، وداخل كل باب أمثالاً ضمنية تدعمها، هي الأخرى، عناوين خاصة بها. وبهذا التشكيل والبناء الخاص بعناوين النصوص السردية في الكتاب نراها تستوقفنا بشدة وتجعلها متميزة عن دونها من القصص.

أسلوب كتاب كليلة ودمنة:

تميز أسلوب كتاب كليلة ودمنة عن غبره من الإصدارات الأدبية بأسلوبه التضامني المترابط والمتداخل، وهو يختلف من باب إلى باب فتتفرع الحكايات وتتدرج بعضها عن بعض ولكنها ذات بنيان متكامل مكونة وحدة متماسكة.

فيعتمد أسلوب السرد في كليلة ودمنة على الحكايات المضمنة ضمن قصص أخرى تعرف بالقصة الإطارية بشكل يشابه سرد حكايات ألف ليلة وليلة، كما تميز بأسلوب السرد التي تَرد على ألسنة الحيوانات والطيور. والنوع الأدبي الذي يتميز به أسلوب السرد في كليلة ودمنة هو أسلوب الخيال.

المضمون الأخلاقي في كتاب كليلة ودمنة:

تجد أن عناصر المادة الأخلاقية في كتاب كليلة ودمنة متناثرة في طيات الحكايات كلها، وتكون في الغالب جزء أساسي من الحوار الذي يدور بين الشخصيات. ولتميز البناء التكويني لقصص كتاب كليلة ودمنة فنستطيع فصل الأخلاق على حِدَةٍ من تكوين القصص وتبويبها وتصنيفها في مجموعات مستقلة.

التصنيف تبعاً عدد النصوص التي تحتوي عليها:

- العقل والعاقل.السلطان وصحبته.الصديق.أخلاق سيئة.العدو. نصائح وحكم.
- أخلاق حسنة.طبيعة الإنسان.المال وعدمه.القضاء والقدر.الحيلة.صاحب الدنيا

أهمية كتاب كليلة ودمنة في الأدب العربي والعالمي

أولاً: إن كتاب كليلة ودمنة يمتلك أهمية كبيرة وسط الأدب العربي والعالمي، وترجع هذه الأهمية إلى:

مضمون الكتاب الذي خاطب جميع أصناف البشر من حكماء ومحكومين والراعي ورعيته والأدباء والقراء في كل زمان ومكان.

ثانياً: تحتوي حكايات الكتاب على الكثير من الحكم الذي تم عرضها في بناء قصصي شيق على لسان الحيوانات والطيور لتحمل رسائل أخلاقية إنسانية ومجتمعية في طياتها مما شجع كثير من الناس على قراءتها ومتابعتها والعيش بداخلها.

ثالثاً: قيام كثير من البلاد والحضارات بترجمة هذا الكتاب إلى لغاتهم شرقاً وغرباً وإمتاع الإنسانية به، وكما قال الدكتور طه حسين: "ثلاث أمم، حكمة الهند، وجهد الفرس، ولغة العرب".

فكتاب كليلة ودمنة هو رمز لتعاون إنساني في خدمة الفكر والثقافة والأدب.

سبب التأليف:

تعددت الآراء حول سبب تأليف الكتاب ولكن اجتمع الأدباء على أن قصة تأليف هذا الكتاب تعود إلى أن أحد الملوك الهنود واسمه (دبشليم) كان ظالما لرعيته، فذهب إليه أحد الحكماء واسمه (بيدبا) لينصحه. فغضب (دبشليم)، وأمر بحبس (بيدبا) لكنه بعد فترة جلس مع نفسه وفكر في كلام الحكيم (بيدبا) فعرف صدق ما قال، فأمر به أن يحضر. وحدثت مناقشة بينهم اقتنع فيها (دبشليم) بكلام (بيدبا).

ومن بعدها أصبح (بيدبا) من خواص الحاكم (دبشليم) وفي أحد الأيام أمر (دبشليم) (بيدبا) أن يكتب له كتابا يخلد فيه ذكره عند الناس... فجلس (بيدبا) مدة سنة كاملة يكتب في هذا الكتاب، وعندما انتهى أمر الحاكم (دبشليم) بيدبا أن يقف وسط الناس ليقرأ ما كتب. فأعجب الناس بالكتاب كل الإعجاب، وانتشر في العالم اسم (بيدبا) وكتابه الذي ألفه.

وبعد سنين جاء إلى الهند (برزويه) الطبيب واستطاع بعد جهد أن ينقل الكتاب إلى الفارسية، مما ساعد على أن ينتشر في العالم.

وفي العهد الإسلامي قام (عبدالله بن المقفع) بترجمة هذا الكتاب إلى العربية مما ساعد في حفظ الكتاب، حتى وصل لنا في هذا العصر.

قال علي بن الشاه الفارسي: كان السبب الذي من أجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشليم ملك الهند كتاب كليلة ودمنة، أن الإسكندر ذا القرنين الرومي لما فرغ من أمر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب، سار يريد ملوك الشرق من الفرس وغيرهم؛ فلم يزل يحارب من نازعه ويواقع من واقعه، ويسالم من وادعه من ملوك الفرس، وهم الطبقة الأولى، حتى ظهر عليهم وقهر من ناوأه وتغلب على من حاربه؛ فتفرقوا طرائق وتمزقوا فرقاً، فتوجه بالجنود نحو بلاد الصين؛ فبدأ في طريقه بملك الهند ليدعوه إلى طاعته والدخول في ملته وولايته. وكان على الهند في ذلك الزمان ملك ذو سطوة وبأس وقوة ومراس، يقال له فورٌ. فلما بلغه إقبال ذي القرنين نحوه تأهب لمحاربته، واستعد لمجاذبته؛ وشم إليه أطرافه، وجد في التألب عليه؛ وجمع له العدة في أسرع مدة من الفيلة المعدة للحروب، والسباع المضارة بالوثوب؛ مع الخيول المسرجة والسيوف القواطع، والحراب اللوامع. فلما قرب ذو القرنين من فور الهندي وبلغه ما أعد له من الخيل الذي كأنها قطع الليل مما لم يلقه بمثله أحد من الملوك الذين كانوا في الأقاليم، تخوف ذو القرنين من تقصير يقع به إن عجل المبارزة. وكان ذو القرنين رجلاً ذا حيل ومكائد، مع حسن تدبير وتجربة، فرأى إعمال الحيلة والتمهل، واحتفر خندقاً على عسكره؛ وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لأمره؛ وكيف ينبغي له أي يقدم على الإيقاع به، فاستدعى بالمنجمين، وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه. فاشتغلوا بذلك. وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصناع المشهورين من صناعها بالحذق من كل صنف. فأنتجت له همته ودلته فطنته أن يتقدم إلى الصناع الذين معه في أن يصنعوا خيلاً من نحاس

مجوفة، عليها تماثيل من الرجال، على بكرٍ تجري، إذا دفعت مرت سراعاً. وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنفط والكبريت؛ وتلبس وتقدم أمام الصف في القلب. ووقت ما يلتقي الجمعان تضرم فيها النيران. فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية، ولت هاربة، وأوعز إلى الصناع بالتشمير والانكماش والفراغ منها. فجدوا في ذلك وعجلوا. وقرب أيضاً وقت اختيار المنجمين. فأعاد ذو القرنين رسله إلى فور يدعوه إليه من طاعته والإذعان لدولته. فأجاب جواب مصر على مصرٍ على مخالفته، مقيم على محاربته. فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأهبته، وقدم فور الفيلة أمامه، ودفعت الرجال ذلك الخيل وتماثيل الفرسان، فأقبلت الفيلة نحوها، ولفت خراطيمها عليها. فلما أحست بالحرارة ألقت من كان عليها، وداستهم تحت أرجلها، ومضت مهزومة هاربة، لا تلوي على شيءٍ ولا تمر بأحدٍ إلا وطئته. وتقطع فورٍ وجمعه، وتبعهم أصحاب الإسكندر، وأثخنوا فيهم الجراح.

النموذج:

"الزرافة ملكـــــة الغابـــــة"

في إحدى الأيام مرض الأسد ملك الغابة مرضا شديدا، وكانت دونا عن بقية الحيوانات بأكملها تزوره وترعاه وتهتم بكل أموره الزرافة، كانت بكل وقت وحين تذهب إليه وتساعده وتقدم إليه كل ما يحتاج إليه.

كان إذا تضايق الأسد رفعت من معنوياته الزرافة بكلمات تشبه البلسم طيبة الأثر على النفس، كان يستأنس دوما بصحبتها ولا يشعر معها بأي ملل، كانت لا تغيب يوما عنه مهما كانت ظروف يومها شاقة.

وبالفعل كانت حنونة معه وطيبة القلب، وبكل يوم كان يشتد عليه المرض أكثر من اليوم الذي يسبقه، وبيوم من الأيام عندما رأى الأسد من مرضه قلاب النهاية قرر جمع كل حيوانات الغابة واطلاعهم على أمر هام.

وبعدما اجتمع جميع الحيوانات من حول أركان الغابة، أطلعهم الأسد ملك الغابة بأنه يولي جميع زمام الأمور من خلفه للزرافة طيبة القلب، ولأنه رأى بها الحنية التي لا توصف ولكونها ستكون من خلفه أصلح من يستطيع أن يأمنه عليهم وعلى كافة أمورهم؛ كما أنه أخبرهم بأن الدب الحكيم سيكون مستشارها من يساعدها في كل شيء.

وبعدما أنهى كلامه تنهد حزينا متمنيا أنه لو كان أنجب شبلا لكان استخلف من بعده، وورث كل طباعه وحبه للجميع والسعي وراء مصلحتهم، هدأت الزرافة من روعه وأخبرته بأنه في قلوبهم جميعا لما قدمه إليهم من حنان وعطف وحب للجميع دون استثناء.

وبالفعل بعدها بأيام قليلة توفي الأسد ملك الغابة وترك خلفه الزرافة لتكون ملكة الغابة من بعده وتحكم بحكمه وتسير على نهجه والذي أساسه العدل والمساواة؛ فعلت الزرافة كل ما أرمها به الأسد الراحل وتمسكت بكل كلماته ولاذت بها.

وبيوم من الأيام جاء فلاح يشكي من الثعلب المكار الذي اقتحم دراه وسرق منه بطته، تداول الأمر أمام الدب الحكيم والذي أمر بتفتيش منزله، وبالفعل وجدوا بمنزله ريشا أبيض اللون وعظام بها آثار لحم طازج، تبين الأمر كاملا حينها للدب الحكيم، وثبت الأمر عليه بأنه من قام بسرقة البطة من منزل الفلاح.

حكم عليه الدب بألا يقرب على جنس الطيور البرية بأكمله وإلا سيكون عقابه حينها عسير، وأنه بهذه المرة اكتفى بلفت انتباهه؛ ولكن الثعلب اغتاظ من الدب وقرر أن يكيد له، كان للدب الحكيم شجرة بأطراف الغابة يجلس أسفلها يتفكر في كافة الأمور، وبيوم من الأيام عزم الثعلب الماكر على التخلص من الدب نهائيا، فحفر بوسط الطريق حفرة واسعة حتى إذا مر الدب بطريقه العادي يقع بها بعد أن أخفاها بغصون الأشجار اليابسة والتراب الكثيف فوقها.وأثناء حفره مر أمامه الذئب

ورأى منه ما رأى، فحاول الثعلب إغرائه بأن يساعده بالحفر وله نصف كل طير يسرقه، ولكن الذئب أعرض عنه وأكمل في طريقه، وكلها لحظات حتى سقط الدب بالحفرة وصرخ بأعلى صوته أملا في أن ينقذه أحد، وبالفعل تم إنقاذ الدب من قبل كل الحيوانان حيث أن الجميع يحبونه. أما عن الزرافة فبعد سماعها لشهادة الذئب حكمت بنفي الثعلب الماكر نهائيا وللأبد خارج الغابة بأسرها.

المحاضرة السابعة/ القصة الفلسفية

رسالة حي بن يقظان لابن طفيل

المقدمة

بلغت المنافسة بين الدين والفلسفة مبلغًا كبيرًا، واعتقد الفلاسفة المسلمون وحدة الحقيقة وتعدد طرق الوصول إليها، فكان العقل سبيلًا لمعرفة الحق من جهة والدين كذلك، وهما يسيران معًا إلى نقطة نهائية واحدة.

وأصل هذا التنافس أن الفلسفة تدعي قدرتها على هداية الإنسان وإرشاده، كما أن الدين يعدّ هذه وظيفته، إلى أن غلّب جملة الناس تقديرهم للدين ورجاله واحتقارهم للفلسفة ورجالها.

وقد عمل الفلاسفة على بحث علاقة الله بمخلوقاته، والموافقة ما بين المنقول وصريح العقول، وقاموا بصياغة فكرة عن الوحي والذي هو أصل الدين، لكن بشكل إجمالي لا جزئي، إلا أن الباحث يمكن له أن يستنبط أفكارهم حول النبوة من خلال مؤلفاتهم. (1)

ومن هؤلاء الفلاسفة ابن طفيل الأندلسي الذي كتب آراءه الفلسفية في رسالته (حي بن يقظان)، والتي تعد أشهر المرويات الفلسفية، وقد عنيت بالبحث

والدراسة من قبل الباحثين، وترجمت إلى عدة لغات، واشتهر مستشرقون في إحياء هذا الأثر الفلسفي، ومن هؤلاء المستشرقين الفرنسي "ليون غوتييه"، والمستشرق الإسباني "غرسيه غومس".

وقد قدمت قصص فلسفية حملت ذات العنوان كما عند ابن سينا والسهروردي، وقد جمعهم أحمد أمين في كتاب استفدت منه في هذا البحث (حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي) إلا أن هذه القصص تتشابه بالاسم فقط والمضمون والأغراض مختلفة، كما نجد قصة مشابهة لحي بن يقظان في الأدبيات الغربية كما عند "دانيال دي فوا" في رائعته روبنسون كروزو، وقد أجرى حسن محمود عباس دراسة مقارنة بين القصتين في كتابه (حي بن يقظان وروبنسون كروزو- دراسة مقارنة)، إلا أن القصة تتعلق بالعقد الاجتماعي أما رسالة حي بن يقظان فهي تتعلق بأمور وجودية وإبستمولوجية.

ابن طفيل: الفيلسوف والأديب:

هو الفيلسوف المسلم والطبيب "أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي. فهو ينتسب إلى قبيلة قيس، تلك القبيلة التي بلغت من الشهرة حدًا جعل اسمها يطلق على ما سوى اليمنيين من العرب(2)

ولد ابن طفيل في وادي يدعى آش، وهو "حاليًا لا يبعد أكثر من 55 كلم عن قرطبة، في عام لم يحدده المؤرخون بدقة، فذكروه ما بين 495 وعام 505ه"(3) حتى أنه "ينسب إليها أحيانا فيقال ابن طفيل القيسي أو الأندلسي أو الوادي آشي"(4)

وقد اشتهر في بداياته في الطب، "وكان الطب في الغالب المدخل للفلسفة إذ كان أحد علومها، ثم أدرك دولة الموحدين وأصبح كاتب عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين"(5)

وقيل عن ابن طفيل " كان شاعرا متوسط الجودة"(6)

أما أسلوبه النثري الذي يتوضح من خلال رسالته حي بن يقظان فيتضح انسياب لغته ورونقها وقربها من القارئ، حتى يتميز ابن طفيل عن الفلاسفة في تمكنه من إيصال أفكاره الفلسفية في قالب لغوي يفهمه البسطاء من غير تقعر في الألفاظ، وقد " أخرج الفلسفة بأحسن ثوب، أو هو أفضل كاتب فلسفي"(7)

ولعل الدوافع التي حملت ابن طفيل على اصطناع القصة قالبا لأفكاره الفلسفية ما وجده هو وغيره من الفلاسفة في كون "الأعمال الفنية مادة طيعة قادرة على عرض وتفسير ونشر أفكارهم"(8)

أما اختياره للشكل القصصي خاصة كنوع أدبي فيعزى ذلك إلى رغبته بالتأثير في نفس القارئ، وتقديم الفلسفة لجمهور الناس بشكل غير مباشر، ويحثهم على طلبها، ويبين لهم أن الفلسفة لا تلغي العقيدة بالضرورة، كما أن التجربة الصوفية هي تجربة واقعية والقصة خير وسيلة للتعبير عن تلك المقامات والمشاهدات التي تعترض الإنسان في رحلته الروحية، إضافة لعلم ابن طفيل مكانة القصة عند القارئ العربي وتعلقه بها، ولما كان ابن طفيل مدركا للنفوس وطبائعها أيقن أن القارئ سيحاول فهم وتبني آراء ابن طفيل قدر الاستطاعة.(9)

فلسفة ابن طفيل:

لقد لخص ابن طفيل فلسفته في رسالته التي تحمل قصة حي بن يقظان، وتعد هذه الرسالة "الأثر الوحيد المتبقي له"(10)

وقد "عرض من خلاله منهجه في الاستدلال على وجود الكليات من الجزئيات، وبطريق الفطرة والعقل والتأمل أي بفضل بعض المبادئ القبلية"(11)

فابتدأ بالحديث عن إنسان مغيب عن أي تأثير بشري، إذ خرج إنسانه من تعريفه الأرسطي بكونه (حيوان اجتماعي) إلى (حيوان اعتزالي)، وعالج في رسالته الفلسفية عدة مسائل مشكلة، وأراد منها بث " أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا"(12)

ويمكن للناظر بعين البحث والتدقيق إدراك العديد من المسائل المشكلة التي طرحها ابن طفيل، والتي لا تزال محل اهتمام الدراسات والأبحاث الحديثة، وهذا يدل على رجاحة عقل هذا الفيلسوف، وأهمية رسالته الفلسفية.

كما وتجدر الإشارة هنا إلى ما قاله الدكتور عبد الحليم محمود في أن " الكثيرين يتحدثون ممن درسوا ابن طفيل عن صلته بالفلاسفة، فيزعم بعضهم أنه تأثر بابن باجه، بينما يذهب آخرون إلى تأثره بالفارابي، ويزعم آخرون أنه كان التلميذ المخلص لابن سينا"(13)

فمقصودهم أن ابن طفيل لم يبتدع القصة بل يمكن أن نجد لها أصولا سابقة، وقد وصل "إميليو غرسيه" في كتابه الذي يحمل عنوان "الناقد" إلى أن قصة "حي" تعود إلى أصل يوناني، فهي شبيهة ببعض الأساطير التي تدور حول الإسكندر. (14)

إلا أن ذلك كله لا ينفي شخصية ابن طفيل، وتميزه عن غيره من الفلاسفة، وعظيم سبكه، ودقة بيانه، وأسلوبه السردي الفريد، والفرادة تبدو في "اعتماد الفكرة، الابتكار في البناء الفني، البراعة في المعالجة، الفعالية في الإيحاء"(15)

وقد سار ابن طفيل على منهج ممزوج من البحث العقلي والكشف والمشاهدة، فقد قام "بإثبات قدرة الإنسان الفائق الفطرة على الارتقاء في المعرفة من المحسوس إلى المعقول، بحيث يصل إلى مرحلتي التجلي والاتصال الإلهيين"(16)

وأما القضايا الفلسفية التي تعرضت لها الرسالة يمكن إجمالها بالآتي:

1- بداية الخليقة وتكوين الإنسان، إذ لم يحسم ابن طفيل كيفية نشأة "حي"، فقد سرد روايتين، الأولى منها: تخمر الطين في جزيرة من جزائر الهند، وهي كما " ذكر سلفنا الصالح -رضي الله عنهم- أن جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء، وهي الجزيرة التي يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب، وبها شجر يثمر نساء، وهي التي ذكر المسعودي أنها جوار الوقواق"(17)

والرواية الأخرى تقول: "إنه كان بإزاء تلك الجزائر، جزيرة عظيمة متسعة الأكناف، كثيرة الفوائد، عامرة بالناس، يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة، وكانت له أخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها منعها الزواج إذ لم يجد لها كفوا، وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم، ثم إنها حملت منه ووضعت طفلا، فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها، وضعته في تابوت ... ثم قذفت به في اليم، فصادف ذلك جري الماء بقوة المد، فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها" (18)

2- اكتشاف الذات، فقد نظر حي إلى الحيوانات في الغابة والأوبار التي تكسوها، وقوة البطش، وسرعة العدو عندها، فما كان له إلا أن ينظر لنفسه وخلوها من ذلك كله، وقد كان يألف بعض الحيوانات كالظبية التي أرضعته ورعته فكان لا يفارقها ولا تفارقه، واتخذ من بعض الحيوانات أعداء كبعض الوحوش المنازعة له، وكان يهش بعصاة سوى أطرافها على تلك الوحوش وخاصة حين تستقوي على الحيوانات الضعيفة "فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة"(19)

كما أنه رأى أن ليديه فضلا على أيدي الحيوانات الأخرى، إذ استطاع بيده أن يستر عورته حين علق أوراق شجر عريضة على خصره وربطها بحزام من الخوص والحلفاء، وصنع بيديه كذلك عصاة اتخذها من أغصان الشجر سواها وعدل منها.

وقد كان يمعن النظر في الحيوانات وأشباهها، "ويتطلب هل يرى أو يجد لنفسه شبيها حسبما يرى لكل واحد من أشخاص الحيوانات والنبات أشباها كثيرة، فلا يجد شيئا من ذلك"(20)

3- اكتساب المعرفة، يذهب ابن طفيل إلى أن اكتساب المعرفة يتم عبر طريقين: طريق العقل، وطريق الارتياض.

4- توافق الفلسفة مع الدين، فالحقائق الدينية لا يمكن أن تتخلف عن الحقائق العقلية.

5- في أن العامة محتاجون إلى وحي من الله، فهم مغرقون بالمحسوسات.

اكتساب حي بن يقظان للمعرفة:

يكتسب الإنسان المعرفة كما يرى ابن طفيل عبر طريقين:

1- المعرفة النظرية.

2- المعرفة الحدسية أو الإشراق الصوفي.

- المعرفة النظرية

إن هذا النوع من المعرفة هو المؤسس على الحواس التي تعمل على نقل صفات الأجسام إلى العقل، فيقوم العقل بإصدار حكم عام، أو إخضاع الأشياء للتجربة.

ولقد قام حي بالنظر إلى الحيوانات والجمادات من حوله وتفحصها، وقام بمحاكاة أفعالها في أحايين كثيرة، فاتخذ غطاء يستر عورته حين رأى عورات الحيوانات مستورة بشعرها، كذلك قام بدفن الظبية حين ماتت أسوة بما تفعله الحيوانات بميتها.

وحين ماتت الظبية التي أرضعته وربته أراد حي معرفة سبب سكونها بعد الحيوية، وعدم حراك هذه الظبية من غير علة ظاهرة على جسمها، ونظر فإذا العطلة قد شملت جميع جسمها، فشرح الظبية ابتغاء معرفة السبب والآفة التي نتج عنها ذلك، وقد أدرك حي العلة والمعلولات والسبب والمسبب حين نظر إلى نفسه، "وكان الذي أرشده إلى هذا الرأي ما كان قد اعتبره في نفسه قبل ذلك"(21)
فقد كان يرى أنه إذا أغمض عينيه حجبت الرؤيا، وإذا سد أذنيه لم يستطع السماع، فوقع في نفسه أن سبب تعطل الظبية هو عضو ما، فبحث في ظاهر جسمها فلم يجد عطلا بينا، فأدرك أنه عطل مغيب عن العيان.

وحين قام بتشريح الجسد ولم يجد كذلك عطلا، تشتت فكره في ذلك كله، وعلم أن أمه التي عطفت عليه وأرضعته، إنما كانت ذلك الشيء المرتحل، وأدرك أن هذا الجسد هو بمنزلة الآلة، فانتقلت علاقته بالجسد إلى صاحب الجسد ومحركه، ولم يبق شوق إلا إليه.(22)

وبذلك فقد بيّن ابن طفيل أن المعرفة الإنسانية آخذة بالتطور والتدرج؛ إذ إن حي ابتدأ بالحواس والتجربة ثم انتقل إلى التحليل والاستنتاجات العقلية، وأخيرا انتقل من العالم الطبيعي إلى ما وراء الطبيعة عن طريق اكتشافه للروح بل وتعلقه بهذا المعنى، إذ إنه "لما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيواني، الذي كان تشوقه إليه أبدا، مركبة من معنى الجسمية، ومن معنى آخر زائد عن الجسمية... هان عنده معنى الجسمية فاطرحه، وتعلق فكره بالمعنى الثاني(23)

- المعرفة الحدسية.

لما نظر حي إلى المحسوسات، أخذ أبسط الأجسام المحسوسة وهي الماء، فوجد أنه يسخن ويبرد، وإذا تعرض لفرط حرارة الشمس أو النار يأخذ شكلا غير الصورتين التي تصدر عنه، فعلم بالضرورة أن لكل حادث محدث.(24)

وعرف خاصية الأجسام، فقد "علم أن السماء وما فيها من الكواكب أجسام، لأنها ممتدة في الأقطار الثلاثة" الطول، العرض، والعمق؛ لا ينفك شيء منها عن هذه الصفة، وكل ما لا ينفك عن هذه الصفة فهو جسم"(25)

وأدرك بعد ذلك أنّ كل جسم متناه، ويلزم عن انتهائه أن "كل قوة في جسم فهي لا محالة متناهية. فإن وجدنا قوة تفعل فعلا لا نهاية له، فهي قوة ليست في جسم"(26)

وبذلك استدل حي على وجود قوة فاعلة خارجة عن الأجسام، ولولا وجودها لم تكن الموجودات، وهي في ذاتها غنية عن كل علة، ذات قدرة متناهية، تتصف

بالحكمة، وبديع الصنعة، فما كان له إلا أن " تتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار في غاية الكمال وفوق الكمال. (27)

ثم أخذ حي بتأمل بأي شيء حصل له العلم بهذه العلة الفاعلة، فتبين أنها بأمر غير جسماني، "فلما علم أن ذاته ليست هذه المتجسمة التي يدركها بحواسه، ويحيط بها أديمه، هان عنده بالجملة جسده، وجعل يتفكر في تلك الذات الشريفة"(28)

وبعد ما حصل حي بن يقظان على المعرفة العقلية، أدرك أن ما وراء العقل طورا معرفيا آخر، ولا سبيل للعقل في الوصول إليه، فاهتدى إلى وسيلة يخفف بها من فعل الحواس، والانقطاع عن الأجسام. فأخذ يغمض عينيه ويصم آذانه ويستعين بالاستدارة على نفسه، فإذا لحقه ضعف أفسدت عليه حاله تناول بعض الأغذية بحسب شرائط معينة، ثم نظر فإذا الحركة من أخص صفات الأجسام، فطرحها واقتصر على السكون في مغارته. (29)

فإذا بحي "يطلب الفناء عن نفسه، والإخلاص في مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك"(30)

وهذه المعرفة التي توصل لها حي تسمى بالعرفان، بحيث تستفيض على القلب "الحقائق ويستلهمها بنفسها عبر حدس يطلق عليه بالحدس الصوفي"(31)

ويعد المنهج العرفاني "منهجا ذوقيا، فهو يقوم على تذوق طعم المعرفة مثلما يتذوق الحيوان الأشياء. ففي هذا المنهج يكون التحسس تحسسا مباشرا بموضوع المعرفة، مما يطلق عليه بالعلم الحضوري"(32)

والظاهر أن ابن طفيل أراد التمييز بين الكشف الصوفي والحكمة المشرقية التي ذكرها ابن سينا وسار عليها هو من بعده، وهي أن الحقيقة التي توصل لها حي ليست بعبادات ظاهرة كما عند المتصوفة، إنما بتأمل وإطالة نظر في أشكال الحياة والموجودات.

ويستفاد منه أنه من أهل العرفان. وهذا بالرد على من وضعه في قائمة الجهاز البرهاني كالجابري في كتابه تكوين العقل العربي، بل إن ابن طفيل صريح الميل والانتماء إلى العرفان.(33)

هذا وإن ابن طفيل قد جمع ما بين العقل والقلب، وعلم أن العقل محدود بعالم المحسوسات، وأن السبيل لمعرفة صفات الله سبحانه لا تكون عبر العقل فحسب بل من خلال مصادر معرفية أخرى، ويمكن أن نجد مثل هذا القول عند الفيلسوف الألماني كانط؛ إذ جعل كانط مناط العقل عالم المادة أما الدين فهو خارج حدود العقل. "إن كانط قال الحق كل الحق عندما قال إن كل محاولة يبذلها العقل للوصول إلى (كنه) الحقيقة النهائية هي محاولة فاشلة، وقال الحق عندما أوضح أن العقول لا تستطيع أن تتعدى ميدان الظواهر المحسوسة لتدرك كنه ما وراء عالم الحس لأنه عالم مجهول"(34)

والاختلاف بين كانط وابن طفيل في أن الأول لا يرى دليل العلة برهانا على وجود الله، بخلاف ابن طفيل الذي جعل من حي بن يقظان يستدل على وجود علة أولى من خلال عقله.

إن حي بن يقظان "يمثل نموذج الإنسان عند العرفانيين من المتصوفة والفلاسفة على السواء. إنه باختصار الإنسان العارف الكامل والنموذج، الذي أنتجه الوعي الإسلامي"(35)

الفلسفة لا تعارض الدين:

لما كان العقل نور من الله، والشرع نور منه كذلك، فالمنطق يقول إن الذي خلق العقل وأنزل القرآن لا بد أن يأتي بالأمور على حقيقتها، وبذلك فإن حقائق الدين لا تخالف الحقائق التي يتوصل إليها العقل السليم، "فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له"(36)

وهذه من أهم القضايا التي تعرض لها ابن طفيل في رسالته، وذلك تمثل عبر أسال ذلك العابد المتبتل "واسمه دال على ما يعتمل بنفسه من أسئلة"(37)
الذي التقى بحي في الجزيرة، فعلمه اللغة وشرائع الدين، و"كان يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها، ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق(38)
وعلم أسال بعدما أخبره حي عن حاله وكيفية معرفته بالذات الإلهية أن المعقول والمنقول مطابقان لبعضهما، "ولم يبق له مشكل في الشرع إلا تبين له، ولا مغلق إلا انفتح، ولا غامض إلا اتضح، وصار من أولي الألباب(39)

حاجة الناس إلى وحي من الله، وإغراقهم في المحسوسات:

أخذ حي بن يقظان يستفسر من آسال عن ملته وما ورد فيها من وصف العالم الإلهي والجنة والنار، والبعث والنشور، والحشر والحساب، والميزان والصراط، فعلم أن النبي الذي جاء في هذا القول محق في وصفه، فآمن به وصدق به، ولكن بقي في نفسه مسألتان وهما؛ لِمَ ضرب الرسول الأمثال للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهي حتى وقع الناس في التجسيم، واعتقاد صفاتٍ في الله هو منزه عنها؟ والمسألة الثانية؛ اقتصار الشريعة على هذه الفرائض فقط، وإباحة اقتناء الأموال والتوسع في المأكل، حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل.

إذ إن حي كان يعتبر المأكل لإقامة الجسد وقليل ما يسد به الرمق، أما الأموال فليس لها معنى، وأشفق على الناس وأراد أن تكون هدايتهم على يديه، ولما أبحر مع آسال إلى جزيرة وأخذ بتعليم الناس أسرار الحكمة لم ير إلا نفورا واستكبارا، ورأى الناس طبقات وأفرقة وكل حزب بما لديهم فرحون، وألهاهم عن ذكر الله البيع والتجارة، فانتهى إلى أن "تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق، وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة إنما هو حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه"(40)

فترك الناس على ما أعلمت به الرسل، إذ الحكمة كلها فيما نطقوا به فاعتذر إليهم وأوصاهم بملازمة حدود الشرع والأعمال الظاهرة، وانصرف مع آسال إلى جزيرتيهما وعبدا الله عزلة حتى أتاهما اليقين.

الخلاصة في قضية الوحي من خلال قصة حي بن يقظان:

يقسّم ابن طفيل الناس إلى أصحاب فطرة فائقة وأصحاب الفطر الناقصة. (41)
ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى أن الوحي هو خطاب لعامة الناس، أما أهل البرهان والعرفان فالوحي لهم بمثابة الإشارات والتنبيهات، والغرض من هذه التنبيهات "تمكنهم من تأويل عباراته المجازية والتمثيلية تأويلا يكشف الدلالات الحقيقية المقصودة من ورائها"(42)
ويمكن أن نجد مثل هذا التقسيم في فهم الخطاب عند الفيلسوف المسلم أبى الحسن العامري، الذي يقول في حق العامة وعدم قدرتهم على فهم الخطاب الفلسفي: "فإن طبقات العوام قد أعرضوا عنها-أي الفلسفة-، وكرهوا الإصغاء إليها؛ لا لأنها منعت عنهم، بل لأن عقولهم بالإضافة إليها نزلت منزلة الأعين الرمدة بالإضافة إلى نور الشمس(43)
وهذا ما توصل إليه حي بعد تعامله مع عامة الناس، فتركهم على ظاهر قول الوحي، أما باطنه وإشاراته ومتشابهه فلا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون في العلم.

من ذلك لا ينفي ابن طفيل النبوة بل يشدد على أهميتها، كما لا يعلي من شأن الفلاسفة على الانبياء كما هو شأن الفارابي، بل نجده قبل الشروع في القصة قد وجه نقدا صريحا للفارابي ونظريته في النبوة، ووصفه بسوء المعتقد في هذا الجانب. (44)
والقصة في نظري رمزية وهي محملة بكثافة المعاني، إلا أن صريح ابن طفيل يخالف الكثير من تأويلات القصة، كما أن مقدمته في الصلاة على النبي وذكر صفاته وفضله تبين رفيع تدينه وحسن معتقده.

وربما تبنى هذه التأويلات مع كونها مخالفة لصريح قوله يرجع لمعضلة المسألة ابتداء؛ إذ الحقيقة واحدة والطريق إليها متعدد.

إن حي بن يقظان عرف الله بالعقل وعبده بالمكاشفة، وبقي متأملا متفكرا، وحسب العبادات ومقصودها ربط العبد بالله وتجديد العهد، وإن كان الدين يدعو للموازنة بين الروح والجسد والدنيا والآخرة، إلا أنه لا ينكر على من أراد الاستزادة، بقطع شهوات الجسد والخلوة عن الناس ما دام هذا خيار واجتهاد شخصي، وفي المسألة عند أهل التصوف تأصيل وإيضاح ليس المحل هنا الاستفاضة فيها.

ينهي ابن طفيل القصة بأنه خشي على الضعفاء الذين اطرحوا تقليد الأنبياء وأرادوا تقليد السفهاء بظنهم أن ثمة أسرار مضنون بها على غير أهلها، فأراد أن يصدهم عن ذلك الطريق، ويجذبهم إلى جانب التحقيق، إلا أنه يلغز بعد ذلك إذ إنه بحسب ما أشار قد أودع في هذه الأوراق حجب رقيق وستر لطيف ينتهك سريعا لمن هو أهله.

لقد أبدع ابن طفيل هذه الرسالة، وفجر بها مكنونات أسرار وقضايا كثيرة، "وليس من قبيل الصدفة أن يكون ابن طفيل قد أعطى مشروعه شكل قصة، مسجلا بذلك لنفسه ابتكارا غير مسبوق إليه في تاريخ التقليد الفلسفي: فالقصة هي النوع الأدبي الأكثر مواءمة لخلق واقع بلا واقع، واقع متخيل تربطه بالواقع الفعلي علاقة مشاكلة لا علاقة مطابقة.. واقع بالقوة لا واقع بالفعل".(45)
وفي نهاية القول، لم ينكر ابن طفيل النبوة، بل على خلاف ذلك فقد شدد على أهميتها خاصة في هداية عوام الناس، أولئك المحجوبون عن الحقائق الإلهية بحجب المحسوسات والشهوات...

وفي الختام:

العقل ميزة الجوهر الإنسي، به عرف الله وأدرك وحيه، وجاء الوحي مصدقا لهذا الجوهر ومساندا له، ولقد أراد ابن طفيل في رسالته الفلسفية بيان هذه الميزة

وعلاقة هذا العقل بالوحي الإلهي، ودرء التعارض الذي يتوهم بين هذين العقلين. ولقد خلصنا إلى إجاباتٍ لقضايا فلسفية أراد ابن طفيل تنبيه العالمين عليها، وأبرزها:

- أهمية العزلة في صياغة المعرفة الإنسانية.

- أثر المجموع في تشكيل المعرفة الإنسانية، وصعوبة التشكيك وإعادة النظر في الآراء السائدة.

- أن العقل والنقل وحيان من الله، لا يمكن تعارضهما.

- لكل مقام مقال، ومقام العوام في الخطاب هو سهولة الألفاظ، وبساطة الفكر، وتحديثهم على قدر عقولهم.

- صعوبة سيادة الفكر الفلسفي في المجتمع المتدين.

- أهمية الوحي في تنظيم الجماعات وإرشادها.- إمكانية إثبات الوحي بالعقل.

المراجع:

1- ابن طفيل، حي بن يقظان، تقديم فاروق سعد، الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة: بيروت.

2- ابن رشد، أبو الوليد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، وزارة الثقافة مكتبة الأسرة الأردنية: عمان.

3- أبو زيد، نصر حامد، هكذا تكلم ابن عربي، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء- المغرب، 2006.

4- أمين، أحمد، حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي، دار المعارف.

5- الجسر، نديم، قصة الإيمان، ص 167، دار التربية.

6- ز.شمس الدين، عبد الأمير، الفكر التربوي عند ابن طفيل، الطبعة الأولى، الشركة العالمية للكتاب: بيروت.

7- عباس، حسن محمود، حي بن يقظان وروبنسون كروزو، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسة والنشر: بيروت، 1983.

8- العامري، أبو الحسن محمد بن يوسف، الإعلام بمناقب الإسلام، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر: القاهرة،1967.

9- العمري، محمد نبيل، النبوة بين المتكلمين والفلاسفة والصوفية، الطبعة الأولى، دار الفتح: عمان، 2015.

10- طرابيشي، جورج، نقد نقد العقل العربي: وحدة العقل العربي الإسلامي، دار الساقي: بيروت.

11- محمد، يحيى، مدخل إلى فهم الإسلام، الطبعة الأولى، الانتشار العربي: بيروت، 1999.

محمود، عبد الحليم، فلسفة ابن طفيل، الطبعة الثانية، مكتبة الانجلو المصرية: القاهرة.

12- مقال سمر الفوالجة،تاريخ النشر: 5ماي 2020.، الرابط:https://alrashad.org/

الحواشي:

1- محمد نبيل العمري، النبوة بين المتكلمين والفلاسفة والصوفية، الطبعة الأولى، دار الفتح: عمان، 2015، ص95.

2- عبد الحليم محمود، فلسفة ابن طفيل، الطبعة الثانية، مكتبة الانجلو المصرية: القاهرة، ص 9.

3- عبد الأمير ز.شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن طفيل، الطبعة الأولى، الشركة العالمية للكتاب: بيروت، ص 11.

4- حسن محمود عباس، حي بن يقظان وروبنسون كروزو، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسة والنشر: بيروت، 1983، ص 18.

5- أحمد أمين،حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي، دار المعارف، ص7.

6- عبد الأمير ز. شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن طفيل،ص 22.

7-المرجع السابق، ص 22.

8-ابن طفيل، حي بن يقظان، تقديم فاروق سعد، الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة: بيروت، ص60.

9- انظر: حسن محمود عباس، حي بن يقظان وروبنسون كروزو (مرجع سابق)، ص 70.

10-المرجع السابق، ص 29.

11- علي حسين الجابري، دروس في الفكر الفلسفي الإسلامي، الطبعة الأولى، دار الفرقد: دمشق، 2010، ص116.

12-ابن طفيل، حي بن يقظان، تقديم فاروق سعد،ص 106.

13- عبد الحليم محمود، فلسفة ابن طفيل، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو: القاهرة، ص17.

14-انظر: عبد الأمير ز.شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن طفيل، ص 15.

15-ابن طفيل، حي بن يقظان، تقديم فاروق سعد،ص 7.

16- حسن محمود عباس، حي بن يقظان وروبنسون كروزو، ص 72.

17- ابن طفيل، حي بن يقظان،ص 117.

18-المرجع السابق، ص 121.

19-المرجع نفسه، ص 131.

20-المرجع نفسه، ص 139.

21-ابن طفيل، حي بن يقظان، ص 133.

22-المرجع نفسه، ص 138.

23-المرجع نفسه، ص 64.

24- عبد الأمير ز.شمس الدين،الفكر التربوي عند ابن طفيل (مرجع سابق)، ص 105.

25-المرجع نفسه، ص 107.

26-المرجع نفسه، ص 114.

27-المرجع نفسه، ص116.

28-المرجع نفسه، ص 119.

29-انظر: حسن محمود عباس، حي بن يقظان وروبنسون كروزو (مرجع سابق)، ص45.

30-المرجع السابق، ص 45.

31- يحيى محمد،مدخل إلى فهم الإسلام، الطبعة الأولى، الانتشار العربي: بيروت، 1999، ص 226.

32-المرجع نفسه، ص 229.

33- يحيى محمد، مدخل إلى فهم الإسلام،ص 99.

34- نديم الجسر، قصة الإيمان، دار التربية، ص 167.

35- نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، الطبعة الثالثة، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء- المغرب، 2006، ص117.

36- أبو الوليد ابن رشد،فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، وزارة الثقافة مكتبة الأسرة الأردنية: عمان، ص 31.

37- نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي،ص177.

38-ابن طفيل، حي بن يقظان، تقديم فاروق سعد،ص 226

39-المرجع السابق، ص 226.

40- عبد الأمير ز.شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن طفيل، (مرجع سابق)، ص 149.

41-المرجع السابق، ص 146.

42- نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي (مرجع سابق)، ص 181.

43- أبو الحسن محمد بن يوسف العامري، الإعلام بمناقب الإسلام، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر: القاهرة،1967، ص 74.

44- عبد الأمير ز.شمس الدين،الفكر التربوي عند ابن طفيل، (مرجع سابق)، ص 70.

45- جورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي: وحدة العقل العربي الإسلامي، دار الساقي: بيروت، ص 397.

الخاتمـــة

برسالة ابن الطفيل الفلسفية نكون قد أتينا على نهاية هذه المحاضرات النظرية والتطبيقية من مقياس النثر العربي القديم والموجهة لطلبة السنة الأولى ماستر تخصص أدب قديم.

يكون الطالب بعد دراسة هذه الحصص تباعا وباجتهاد منه يسير أو معتبر (آخذين بعين الحسبان مستوى الطالب المتوسط) يكون قد حقق الأهداف الآتية، وحققنا معه جملة من الكفاءات المستهدفة والختامية، نوجزها على النحو الآتي:

-اكتسب الطالب معرفة عامة حول طبيعة النثر العربي القديم، أشكالا وخصائص وتصورات ومضامين...

-فعرف أشكال النثر في العصور الأدبية المعروفة ابتداء بالعصر الجاهلي وانتهاء بالعصر العباسي وحتى البيئة الأندلسية.

-تعرف الأمثال والحكم في العصر الجاهلي وتعرف الخطابة عند العرب وعرف نشأتها وتطورها والأسباب المؤثرة فيها عبر العصور ...

-اكتسب الطالب معرفة مؤسسة حول الكتّاب العرب الكبار وخطبائهم في مختلف العصور والأقاليم...وتمكن من خلال ذلك من الاطلاع على أهم المراجع العربية والمصادر والموسوعات الجديرة بالمدارسة والبحث...

-تعرف الطالب على أهمّ الفنون النثرية لدى العرب قديما، واطلاعه على أجود نصوصهم وأهم معانيها ومدلولاتها..

-خضع الطالب في سداسيين لاختبارين رئيسين وجملة من الاختبارات الجزئية(04) شكّلت طبيعة التقويمات المستمرة لهذا المقياس...

ملاحظة منهجية: عدد الحصص المعدة تقريبا ضعف عدد المحاضرات(14 حصة)

الملخص:

تناولنا مجموعة من المحاضرات في مقياس النثر العربي القديم موجهة لطلبة الماستر تخصص أدب قديم في سنتهم الأولى. درسنا فيها أشكال النثر العربي القديم عبر العصور. فبحثنا الأمثال والحكم والخطابة ونشأتها وتطورها ثم درسنا الرسائل

بمختلف أشكالها، ثم عرفنا مفهوم المقامة وعرّفنا بأشهر مؤلفيها، ثم تناولنا أدب الرحلات، وكذا القصة على لسان الحيوان، وختمناها بالقصة الفلسفية عند ابن طفيل.

Abstract:

We gave a series of lectures on the course of ancient Arabic prose, directed at master's students specializing in ancient literature in their first year. We studied the forms of ancient Arabic prose throughout the ages. We researched proverbs, wisdom, and rhetoric, their origins and development, then we studied letters in their various forms, then we learned the concept of the maqama and introduced its most famous authors, then we discussed travel literature, as well as the story in the tongue of animals, and we concluded with the philosophical story of Ibn Tufayl.

الموضوع	الصفحة
المقدمة	4
مفهوم النثر عند العرب القدامى	5

موقف الجاحظ من النثر	6
موقف أبي حيان التوحيدي من النثر	6
النثر الجاهلي	7
الأمثال والحكم	9
مظاهر النثر عبر العصور	15
الخطابة في الأدب العربي القديم	25
الخطابة في العصر الجاهلي	25
الخطابة في صدر الإسلام	28
الخطابة في العصر الأموي	30
الخطابة في العصر العباسي	32
الخطابة في الأندلس	35
الرسائل الديوانية والإخوانية والأدبية	56
فنون السرد العربي القديم/ المقامات	63
أدب الرحلات	77
القصة على لسان الحيوان	97
القصة الفلسفية/ رسالة حي بن يقظان لابن طفيل	115
الخاتمة	132
الملخص بالعربية وبالانجليزية	133
فهرس المحتويات	134

فهرس المحتويات